نزهة الألباء في مطارحات القراء

(تجربة فريدة في التواصل الفعال)

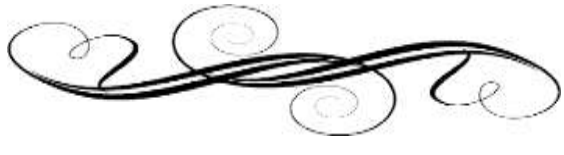

الدكتور

محمد فتحي عبد العال

الطبعة الأولى ٢٠٢٣

ديـوان العـرب للنشـر والتـوزيع

عنـوان الكتاب: نزهة الألباء في مطارحات القراء
(تجربة فريدة في التواصل الفعال)

اسم المؤلف: الدكتور محمد فتحي عبد العال

رقم الإيـــــداع: 26433 / 2023

الترقيـم الدولي: 7 - 789 - 998 - 977 – 978

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

تـصـميـم الغلاف: منـى المـوجـي

التنسيق الداخلي: محمد وجـيـه

رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد

تليفون: 00201211132879 – 00201030502390
بريد الدار: mohamedhamdy217217@gmail.com

نزهة الألباء في مطارحات القراء

(تجربة فريدة في التواصل الفعال)

الدكتور

محمد فتحي عبد العال

ديوان العرب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أختي العزيزة الأستاذة أمنية فتحي عبد العال، والتي حملت على عاتقها مهاماً كثيرة في سبيل إنجاز الكثير من مواد هذا الكتاب، ومرافقتي في كثير من اللقاءات والندوات الأدبية وتسجيل محتواها بدقة ومراجعتها معي..

فلها مني كلّ الشكر والتقدير

د.محمد فتحي عبد العال

****

""لم يكن في الأرض أعظم من مصر، و لو ضُرب بينها وبين سائر بلاد الدنيا سور لاستغنى أهلها بما فيها من خيرات عن سائر بلاد الأرض، فهي أكثر البلاد كنوزاً وعجائبَ وآثاراً"

ابن إياس

كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور"

"وأهل مصر ما يطاقون من ألسنتهم إذا أطلقوها في حق الناس".

ابن إياس

كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور"

مقدمة

ما دعاني لأن أفرد كتاباً خاصاً لإدارة الحوار مع قرائي ما تعلمته بمجال الجودة من ضرورة التواصل (communication) وتقديم تفسيرات وتوصيات (feedback) كاملة وكافية ووافية نحو أي استفسار مهما كان..

وتعلمت أيضاً أن أحترم الاستفسارات مهما كانت بساطة أطروحاتها أو أصحابها، وتأكدت أنّ عبارة "آن للشافعي (في روايات أبي حنيفة) أن يمد رجله"، لا حقيقة لها ولا ينبغي أن تكون بين سائل ومسؤول..

بالتأكيد أنا لست موسوعيّاً وبعض الأسئلة لا أخفيكم سرّاً أنّها تضعني في كثير من الأحيان في حيرة وفي مأزق البحث عن إجابة منطقية وشافية ومقنعة بعيداً عن التابوهات المحفوظة..

كثيراً ما وضعت نفسي مكان صاحب السؤال، وأخذت أعسُّ بين أوراق الماضي ودروب خباياه بحثاً عما اقتنع به أولاً ليتسنّى لي أن أقدمه لقرائي عن طيب خاطر..

ذات يوم قررت الالتحاق بمعهد إسلاميّ بنظام الدراسة عن بعد يزعم أنّ موطنه الأصليّ أمريكا.. الصراحة لم يعنِني في الأمر سواء أكان صدقاً أو كذباً إلا أن أستمر على عهد قطعته على نفسي في الانتظام بالدراسات الإسلامية، إذ أحسست بأمان داخلي واطمئنان مع الدبلوم الأوّل الذي حصلت عليه من المعهد العالي للدراسات الإسلامية، واستشعرتُ أنّ التزود بالدين يبعث في النفس راحة لا تضاهى، فقررت

أن أستمر رغم سفري للخارج.. سرعان ما ضقت ذرعاً بنظام المعهد الذي يشترط الحضور اليومي على برنامج زووم (Zoom) لمدة تتجاوز الساعتين وهذا محال مع ظروف عملي، فاقترحت عليهم أن تسجل المحاضرات وتترك مسألة الحضور لمن استطاع لذلك سبيلاً، وأوضحت أن بعض الدراسين يضطرون للكذب فيشعلون زر الزووم لمجرد إثبات الحضور وينصرفون لأشغالهم في الحقيقة.. وإذا بمسؤول إحدى المواد وكأنّني أشعلت زناد فكره المنغلق منذ ولادته، فبدلاً من أن يستمع ويناقش ويدرس الموضوع من جوانبه تجاهل كلامي بالكلية، واستحدث نظاماً جديداً وهو مناداة الطلبة أثناء بث المحاضرة، وتسجيل المنتبهين معه فعلياً، ووضع لائحة غياب كنت على رأسها... استغربت سلوكه وداخلتني الريبة وسألته عن مؤهلاته العلمية فكتب رداً عليّ: "وهل يسأل الطالب عن مؤهلات أستاذه ومعلمه؟" فرددت عليه: بالطبع من حق الطالب أن يقف على مؤهلات الأستاذ وإن كانت متوافقة مع تخصصه.. فكتب في برود ترسمه الكلمات: وهل كان لدى البخاري أو الشافعي مؤهلات أكاديمية قبل تصديهم للحديث والفقه؟! ونالني الحجب والفصل من المعهد.. طبعاً عرفت أنّ هذا الأستاذ، والذي من المفترض أنّه موكل له الإشراف ومناقشة رسائل ماجستير ودكتوراه "أون لاين" هو مقرئ بأحد المساجد لا أكثر ولا أقل.

ما فائدة ما سردت؟! أريد أن أوضح لك عزيزي القارئ التعريف المثاليّ والجليّ لغياب مفهوم التواصل الفعال وانعدام ثقافة الحوار وتبادل الآراء داخل مجتمعاتنا...

ولن أكون مبالغاً أو لدي استشعار زائد بالذات أو حتى على بعض عتبات درج الغرور إن قلت إنّني بهذا الكتاب الذي أضعه بين أيديكم به أكون أوّل كاتب

مصريّ وعربيّ يتخذ هذه الخطوة، ويفرد هذه المساحة الكبيرة لقرائه بحثاً عن قواسم مشتركة وفهم متبادل من أجل واقع أفضل وغد مشرق عمادهما تاريخ حقيقي أو قاب قوسين أو أدنى منه...

والله من وراء القصد

د.محمد فتحي عبد العال
كاتب وباحث وروائي مصري

****

الأسئلة والتعليقات

1- أدهشني في كتابك "صفحات من التاريخ الإسلامي دروس وعبر" زعمك أن بيبرس كان تترياً؟!

أنا تحدثت في الكتاب عن كون "بيبرس" من قبائل "القبجاق" التركية، لكن البعض يزعم كونه شركسياً، والمثير ما جاء في رواية ابن تغري بردي في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" من أنّ "بيبرس" كان يشبه الأمير (كرمون آغا التتاري) والشبه بالطبع غير كافٍ ولا يعول عليه في الانتصار لكونه تترياً!

لكن يبقى الأشهر والمستقر نوعاً ما بين المؤرخين هو أصله "التركي" استناداً لمعاصرة بيبرس وهو غلام لحملة القائد المغولي "سوبوتاي" على قومه القبجاق، وأنّ المغول ذبحوا أقاربه أمام عينيه وأسروه هو وبدر الدين بيسري الصالحي وبينهما قرابة فبيع بيبرس للأمير علاء الدين إيدكين البندقداري نائب حماة (صاحب الخانقاه في بركة الفيل بالسيدة زينب وكان له دور في تحريض شجرة الدر على قتل أيبك وعاش حتّى صار من جملة أمراء الظاهر بيبرس وكان الأخير يعترف له بأستاذيته) فيما بيع بيسري للصالح نجم الدين أيوب، ولكن القدر جمعهما معاً بعد نكبة البندقداري وسريان أملاكه وأمواله ومواليه ومنهم بيبرس للصالح نجم الدين...

في ظني أنّ هذه القصة هي الأقرب للحقيقة وتفسر عداء بيبرس وتكشف سخيمة نفسه وحقده الدفين على التتار واستئثاره بالنصر عليهم بعد قتله لقطز وإقامته ركناً خاصاً به شعار الأسد، وإقامته نصباً تذكارياً في عين جالوت "مشهد النصر" هو الأوّل في تاريخ الإسلام ليخلد هزيمته لهم...

اسم بيبرس ويعني "أمير فهد" (Bey بالتركية أمير+ Pars بالتركية فهد) من الدلائل الأخرى على تركيته..

بحسب أوصاف "بيبرس" التي أوردها "المقريزي" في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك)، فقد كان طويل القامة، أسمر اللون، في عينيه زرقة وبإحدى عينيه نقطة صغيرة (مرشوقة) مثل الأفعى، وهذا وجه استدل منه البعض على إصابة بيبرس بمرض "الكتاراكت أو المياه البيضاء"، واستدلوا من ذلك على كونه من سلالات الترك ذوي الملامح المغولية والأوروبية، وينتشر بينهم هذا المرض، وهذا ليس وجهاً مناسباً للاستدلال أيضاً لسببين الأول أنّ كُتّاب السير لم يشيروا إلى ما يمكن أن نستنتج منه أعراض مرض المياه البيضاء لدى بيبرس، وهو مرض يسبب العتمة وحجب الرؤية وبيبرس ممن حكموا بمنطق "الحكم من فوق صهوة الخيل" فهو في حروب متصلة لا تنقطع، كذلك أنّ المرض ليس بالنادر أو المميز لفئات عرقية دون أخرى..

في النهاية يبقى هذا البحث في دائرة الطرافة التاريخية، ولا ينبغي أن يتعداها لأبعد من ذلك، فعادة ما تدور مشكلات جمّة حول هذا النوع من البحث عن العرقيات والأصول والأنساب، وهو من قبيل العلم غير النافع، حيث تتحول المسألة بمضي الوقت لساحات تشاحنات ومبارزات عرقية تدعم الفرقة والمرء في النهاية يخلد ذكره بما قدمه لمجتمعه وأمته لا بحظه من الأصل والنسب...

****

2- هل كان أمير الشعراء سكيراً كما ذكرت في كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر"؟! وهل شهادة سكرتيره كافية؟!

أحمد شوقي نفسه تحدث عن ولعه بالخمر بشكل صريح لا يحتمل اللبس في قوله:

"رَمَضانُ وَلّى هاتِها يا ساقي

مُشتاقَةً تَسعى إِلى مُشتاقِ

ما كانَ أَكثَرَهُ عَلى أُلّافِها

وَأَقَلَّهُ في طاعَةِ الخَلّاقِ

اللَهُ غَفّارُ الذُنوبِ جَميعِها

إِن كانَ ثَمَّ مِنَ الذُنوبِ بَواقي

بِالأَمسِ قَد كُنّا سَجينَي طاعَةٍ

وَاليَومَ مَنَّ العيدُ بِالإِطلاقِ

ضَحِكَت إِلَيَّ مِنَ السُرورِ وَلَم تَزَل

بِنتُ الكُرومِ كَريمَةَ الأَعراقِ"..

ورغم هذا فاعتقادي أنّه لم يكن سكيراً بالمعنى المتعارف عليه (**heavy drinker**) لكنّه كان أقرب إلى محاكاة النموذج الغربي الذي يستخدم الحد المعتدل

من الكونياك ضمن **life style** لأغراض صحية ربما، كالحفاظ على ضغط الدم والتخفيف من نزلات البرد والسعال، وخواصها في تقليل الالتهاب في حالات وجع الأسنان والهضم، أو ربما كان الهدف تنشيط الدماغ واعتدال المزاج.

المدهش أنّك لو بحثت في تاريخ هذه الفترة الثلاثينيات من القرن المنصرم، تجد قناعة لدى بعض الفئات المتوسطة في فوائد الكونياك تأثراً بالأجانب وثقافتهم الغربية، فتجد الكونياك مستخدماً في الطبخ! ولعلّ أطرف هذه الوصفات ما قرأته في خطاب يعود إلى ١٧ فبراير ١٩٣٤ م، مرسل من أم قاطنة بالزقازيق إلى ولدها للاطمئنان على زوجته والتي يبدو من الخطاب أنّها إما حامل أو وضعت للتوّ وليدها توصيها بالعناية بصحتها عبر مزج "الكنياك مع البيض واللبن والكبدة باستمرار" وهي وصفة مقادير تبدو الأقرب لشراب البيض (**eggnog**) المشروب البريطاني الأمريكي التقليدي المكون من بيض مخفوق مع السكر والحليب والكحول والذي يقدم مع أعياد الميلاد بالعادة.

لقد كنت على قناعة بأنّ الأمهات من الزقازيق ربات بيوت مثقفات في الأمومة والطفولة بالسليقة، لكن بعد هذا الخطاب أجدني قد تبدلت وجهة نظري تماماً.. فيا حضرة الحماة الطيبة والجدة الرائعة، وذلك بافتراض أنّ الزوجة لم تغضب حماتها قط وبمثابة الابنة منها: الكحول خطر على المرأة الحامل والمرضعة، فشرب الكحول أثناء الحمل يسبب لدى الوليد "متلازمة الكحول الجنينية"، حيث تلف المخ ومشاكل بالنمو أما لدى المرضعة فيقلل إدرار الحليب على عكس الشائع ويعرض الوليد لقصور في النمو الحركيّ وتغير في أنماط النوم، والمخاطر لا تتغير تبعاً لكمية

الكحول قلَّتْ أم كثرت، نأتي للكبدة للحامل والتي ترتفع فيها نسبة فيتامين (أ) مما يزيد من خطر التشوهات الخلقية لدى الجنين...

رحم الله أمي كانت توصي كلّ أم ترضع وليدها بلبن "السرسوب أو السائل الأصفر" الذي يتم إفرازه بعد الولادة مباشرة فهو التطعيم الأوّل للطفل لغناه بالبروتين والأجسام المناعية التي تقيه من العديد من الأمراض طوال حياته، وكانت تسميه باللبن الذهبي.

القناعات بأهمية الكحول صحياً لم تكن أبداً لصيقة بالماضي فحسب، بل حتى يومنا هذا فمع انتشار جائحة كوفيد ١٩ وزع (مايك مبوفي سونكو) حاكم العاصمة الكينية نيروبي زجاجات من الكونياك على الفقراء من شعبه مدعياً أنّها تقي من الفيروس القاتل ضارباً بعرض الحائط توضيح الشركة المصنعة بأنّ ما يروج له من قبيل الأساطير ولا صحة له!

فيما يخص الكنياك (بحسب الخطاب وهي الكتابة الصحيحة) أو الكونياك فهو مشروب كحولي مقطر من العنب ومعتق، والاسم نسبة إلى مدينة تقع في إقليم شانت بجنوب غرب فرنسا ومشهورة بصناعته مع مدينتين أُخريين هما أرجمانك الفرنسية أيضاً وخيريز الأسبانية (حاصلة على لقب عاصمة النبيذ الأوربية).

هذا الخمر الأصلي والذي تبلغ نسبة الكحول به ٧٠ ٪ والكحول المستخدم في الخمور بالمناسبة هو الكحول الإيثيلي أو السبرتو الأبيض، كما يعرفه من عمل مثلي بالصيدليات ورأى أصحاب المزاج -طبعاً الفقراء منهم- ممن يأتي لشرائه بدعوى تطهير الجروح وشتان بين الكحول الإيثيلي والكحول الميثيلي أو الميثانول المسمى

السبرتو الأحمر، والذي يغش به الخمور أحياناً أو يباع على سبيل الغش لأصحاب المزاج وهو غش قاتل، ذلك أنّ الميثانول يتحول في الجسم إلى حمض الفورميك (موجود في لسعة النمل وسمّ النحل) والذي بدوره يدمر العصب البصري ويصيب بالعمى وهو وللأسف الشديد عرض ظاهر ومنتشر بين مدمني الخمور في هذه الآونة...

على كلٍّ.. وبعد كلّ هذا الطرح المرح، نخلص منه إلى جد الجد وهو أنّ امتثالنا لأوامر ديننا ونواهيه أولى من مجاراة الغرب واتباع أضاليله، فالخمر قليله أو كثيره حرام فعن المختارِ بنِ فُلفُلٍ قال: سألتُ أنسَ بنَ مالكٍ عن الشُّربِ في الأوعيةِ فقال: نهَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم عن المُزفَّتةِ وقال: كلُّ مُسكرٍ حرامٌ –قال – قلتُ له: صدقتَ، السُّكْرُ حرامٌ فالشربةُ والشربتَينِ على طعامِنا؟ قال: ما أسكر كثيرُه فقليلُه حرامٌ..

****

3- في كتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام" في موضوع مصر القديمة تحدثت عن رواتب الموظفين في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني وأوردت أمثلة وأنا موظف بوزارة الآثار وأود أن أعرف راتبي في ذلك العهد البعيد؟!

بالعودة إلى قرار نظارة الأشغال العمومية نمرة ٦٥٠ و٦٥١ في ٢٩ يونيه ١٩٠٨ م ويحمل توقيع حسين فخري ناظر الأشغال العمومية (من أصل شركسي، تولى رئاسة الوزارة لمدة ثلاثة أيام (من ١٥ يناير ١٨٩٣م - إلى ١٨ يناير ١٨٩٣م) كما كان الوزير الأطول شغلاً لوزارتي الأشغال والمعارف العمومية وأوّل من أدخل تعليم الدين والسلوك في منهج التعليم الابتدائي عام ١٨٩٧م وتحدثنا عنه في (نوستالجيا الواقع والأوهام)... نجد الرواتب السنوية والعلاوات للعاملين في إدارة عموم الآثار المصرية على النحو التالي:

مدير عموم (جناب المسيو جاستون ماسبيرو) ١٥٠٠ جنيه مصري راتب سنوي - سعادة بروكش باشا راتب سنوي ٨٠٠ جنيه مصري-أحمد بيك كمال راتب سنوي ٤٥٠ جنيه مصري- باشمفتش المستر كيوبل راتب سنوي ٦٠٠ جنيه مصري - مفتش درجة أولى محمود أفندي محمد راتب سنوي ١٦٨ جنيه مصري وعلاوة ٢٤ - مفتش من الدرجة الثانية توفيق أفندي بولس راتب سنوي ١٢٠ جنيه مصري وعلاوة ٢٤ - ناظر إدارة المسيو هرفي بازيل راتب سنوي ٦٧٢ جنيه مصري وعلاوة ١١٢ - أمين كتبخانة المسيو جالتيه راتب سنوي ٢٤٠ جنيه وعلاوة ٦٠.. والأرقام تظهر وتؤكد ما أشرنا له في الكتاب بشأن التفاوت الكبير بين الموظفين الأجانب والوطنيين في الرواتب والامتيازات.

(ملحوظة طبعاً هذه أمثلة والتقرير للاستئناس ولا يصلح للاستشهاد التاريخي لعدم الاطلاع على الأصل والتيقن منه).

وبمناسبة المرتبات ولأنّني أعتزّ بعم أحمد، وكان من الزبائن الدائمين لديّ حينما كنت أعمل بإحدى الصيدليات أيام الشباب ودائماً في إجازاتي ما أصادفه وقد شرفني بقبول إهداء كتابي... دائماً ما كان عم أحمد يحكي عن جده، وأنّه من ضمن من شملهم التعيين في المسابقة التي أقامتها نظارة الخاصة الخديوية لتعيين مدرسين في مدرسة العزبة المتمدنة بالقبة (مدرسة أقيمت لتعليم أولاد الفقراء) بالفترة من أوّل رمضان حتى ١٥ شوال ١٣١٨ هجرية (بين عامي ١٩٠٠ و١٩٠١ م) في مواد (النحو والإنشاء والحساب والهندسة) ويباهي بصورة الإعلان التي عثر عليها مؤخراً.. لذا لم أستغرب سؤاله عن معاشات الخاصة الخديوية بمجرد أن سمع مني بعض الحكايات من كتابي عن الخديوي عباس حلمي الثاني والمرتبات وقتها.. ربما كان يمنّي نفسه بأن يحصل على هذا المعاش يوماً ما ليحسن حاله... أو ربما طمعاً في عودة أبنائه إليه بعدما صار وحيداً، وقد تركوه عقوقاً ونكراناً للجميل هرباً من فقره وقلة حيلته.. وعلى الرغم من ضعف بصره إلا أنّه لازال يمارس صنعته في الخياطة ويشجع الزمالك لأكثر من ربع قرن متمنياً أن يفوز فريقه المفضل ولو مرة قبل الممات!

إحقاقاً لقد كنت في غاية الإحراج، فقد فوجئت بالسؤال ولم يكن من مضامين بحثي، لكن ما أحلى المصادفة التي حملت لي صورة "سركي معاش (ثمنه ثلاثون مليماً) نورده هنا على سبيل الاستئناس" ونصه: "نظارة المالية إدارة عموم الحسابات.. باسم حضرة حسين بيك حسني الذي كان معاوناً بالخاصة الخديوية.. أوصافه: قمحي اللون- مفتوح الحاجبين وبخده آثار جرح (دقة متناهية الصراحة يليق بتحقيق

شخصية).. المعاش الشهري ٢٠ جنيه وارد ضمن نوع (٩) الخدمة الملكية بمصر اعتباراً من أول ديسمبر ١٩١٣م التالي لآخر ما صرف في اليد من محافظة "إسكندرية" الخزينة المكلفة بالصرف: نظارة المالية.. ميعاد الصرف: يوم الخميس الأوّل من كلّ شهر (الصراحة نظام **appointment** بدائي لكن مميز).. وعليها ختم ناظر المالية".. كنت طائراً من الفرح أن حصلت على إجابة سؤال عم أحمد وسأزف له الخبر في التوّ قبل موعد سفري الذي أوشك.. لكنّه طرح عليّ السؤال مجدداً وقد أصابته خيبة الأمل: "والعشرين جنيه دول يساووا كام دلوقت وهل لو لجدي نفس قيمة المعاش هل ستصرف لي عشرين جنيه كما هي أم بما تساويه الآن؟! فاعتذرت لعم أحمد بأنّي إحقاقاً لا أعرف وكذلك لا يمكنني معرفة أبعد من ذلك...

الطريف أنّ الورقة حملت توقيع "أوغست أديب" مدير عموم الحسابات بالنيابة عن ناظر المالية.. هذا أجمل ما في تاريخ مصر أنّ ورقةً واحدةً قد تنقلك بين تواريخ وشخصيات وأحداث شتى.. عراقة قلّما تجتمع في وطنٍ واحدٍ، ولكن من يحافظ على التاريخ ويصونه؟! المهم أنّ أوغست أديب باشا لمن لا يعرفه فهو ماروني لبناني الأصل أتى مصر للعمل كمهندس في دائرة المساحة عام ١٨٧٥ م، وبعدها بثلاث سنوات نقل إلى نظارة المالية وأوفد إلى فرنسا وإنجلترا لتعلم أصول المحاسبة وعاد ليضطلع بمهمة تنظيم المحاسبة المصرية وعين أمين سر الدولة والمالية.. في لبنان كان ينتظره مستقبل واعد فمع إعلان دولة لبنان أوكل له رئاسة مجلس الشورى عام ١٩٢٥م، وفي العام التالى أوكل له تشكيل أوّل وزارة قبل إعلان استقلال لبنان احتفظ فيها لنفسه بوزارتي المالية والعدل.. بعد اعتزاله الحياة السياسية اختار فرنسا للعيش بها ليلقى مصرعه محترقاً بأحد غرف فنادقها عام ١٩٣٦ م.

في طريق عودتي للمنزل مرّ بخلدي هاتف: من هو وزير المالية في هذه الفترة؟!

بالبحث وجدت أنّه هو سعيد ذو الفقار باشا (نجل علي أحمد ذو الفقار باشا من وزراء مصر السابقين وشقيقه أحمد ذو الفقار باشا وزير الحقانية الأسبق) في وزارة محمد سعيد باشا الأولى وأنّه كلّف بالمالية في تعديلات ٢٠ نوفمبر ١٩١٣ م فيما تم نقل سلفه أحمد حلمي باشا ليكون ناظراً للمعارف الحكومية.

سعيد ذو الفقار كان كبير الأمناء في عهد السلطان حسين كامل ومن بعده الملك فؤاد.. ولنتوقف هنا عند سؤال كيف كانت تنتقى الكفاءات للمناصب؟! وهي من الدروس المهمة التي ضاعت مع إهمال تحريّ تاريخ الشخصيات التي شكلت وعي حقبة ما قبل عام ١٩٥٢ م ولنتخذ من سعيد ذو الفقار باشا أنموذجاً.. في كتاب (تاريخي بقلمي) لنبوية موسى تقول عنه: "هكذا كان حضرة صاحب المعالي سعيد باشا ذو الفقار حريصاً كلّ الحرص على سمعته، لا يسمح مطلقاً أن يمسّها شيء من الشك أو الريبة، ومما أذكره لمعاليه أنّ السّيدة لبيبة هاشم، وكانت صاحبة مجلة في ذلك الوقت جاءت لمقابلته فرفض مقابلتها، وزارتني لأتوسط بينها وبين المدير في تحقيق رغبتها، فكلمته تليفونيّاً، ورجوته أن يقابلها فقال: هل هي صغيرة السن؟ قلت: نعم هي في مثل سني، أو أكبر قليلًا. قال: أرجو أن تعافيني من تلك المقابلة. قلت: أحمد الله الذي خلق لي وجهاً يمكنني من مقابلتك صباح مساء دون أن ترفض أو تتردد. وكان لشدة حرصه على العادات الشرقية لا يقابلني أنا نفسي إذا زرت منزله، بل تقابلني السّيدة حرمه وكريماته، وكانت عاداته في منزله عادات الشرقيين المحافظين، فلا يسمح لحرمه المصون بأن تصحبه في أية جهة، ولم يرَها أحد من المنصورة عموماً، بل كانت تأتي من القاهرة وتذهب إليها دون أن يشعر

أحد بمجيئها أو ذهابها، وكان معاليه قوي الشكيمة في منزله، حسن المعاملة في وقت واحد، لا يسمح لخادمة أن تدنو منه، بل كانت تقوم حرمه بكلّ طلباته الخصوصية، فكان مثال الكمال في منزله، وفي عمله." انظر عزيزي القارئ لنموذج المسؤول عفيف القلب والغاضّ لبصره وقارنه بواقع اليوم... لازلت أتذكر أحد رؤساء الأقسام بمكانٍ بحثيٍّ ما، وقد صادف أن كنت لديه في مسألة علمية وهو يجلس مع فتاة ترتدي "الميني جيب" والمفترض أنّها متقدمة لشغل وظيفة سكرتيرة بالقسم لديه! طبعاً أسئلته لها سارحة مع نظراته المركزة بين تضاريس جسدها والغارقة مع ساقيها... سلمت الفتاة أوراقها إليه واستأذنت، فبدأ يفحص أوراقي وهو لا زال يحملق في خلفيتها العالية، ولا أظنه قد انتبه لأيّ سطر مما كتبت!

****

4- في كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر" ضربت مثالاً رائعاً بروح الانتماء داخل الإنسان المصري والتي تغرد معه أينما ذهب وذلك بالمصري الذي رفع علم مصر بالمكسيك وهو مثال ملهم حقاً.. فهل من أمثلة أخرى من خلال بحثك في أرشيف الصحافة المصرية؟

نعم بكل تأكيد هناك أمثلة عديدة أطرح منها هذا المثال من مجلة اللطائف المصورة العدد ٤٦٥ في ٧ يناير ١٩٢٤ م وصورة وخبر لحفلة نسائية في سنغافورة أقامتها السيدة عطية حرم السيد عمر السقاف "من قراء اللطائف المصورة" للابتهاج بعقد الصلح التركي (المقصود معاهدة لوزان وهي اتفاقية سلام دولية وُقعت في لوزان بسويسرا بين كلٍّ من تركيا وبريطانيا وفرنسا عام ١٩٢٣م لترتيب أوضاع الدولة التركية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى لتنتهي دولة الخلافة العثمانية الإسلامية للأبد، ويبدأ الأتراك مرحلة جديدة مع إعلان الجمهورية التركية على أسس علمانية حديثة) وفوز مصطفى باشا كمال (أتاتورك)، وقد خاطت السّيدة الأعلام المصرية والتركية بيديها، ورفع أحد موظفي الدائرة بيده اللطائف المصدرة بصورة السّيدة هدى شعراوي، ووقفت السّيدات وراء الستار المرسوم عليه العلم العثماني والمصري.

بحسب مذكرات "هدى شعراوي" فقد تلقت دعوة لحضور احتفال أتاتورك وألقت في حضوره كلمة باللغة التركية باعتبارها "وكيلة عن الهيئة النسائية الدولية" قالت فيها: "إنّ هذا المثل الأعلى من تركيا الشقيقة الكبرى للبلاد الإسلامية شجّع كلّ بلاد الشرق على محاولة التحرر والمطالبة بحقوق المرأة" وأضافت: "إذا كان الأتراك قد

اعتبروك عن جدارة أباهم وأسموك أتاتورك، فأنا أقول إنّ هذا لا يكفي، بل أنت بالنسبة لنا (أتاشرق)" وتمضي هدى شعراوي لترصد وقع تأثير كلامها على أتاتورك بقولها: "فتأثر كثيراً بهذا الكلام الذي تفردت به، ولم يصدر معناه عن أي رئيسة وفد وشكرني كثيراً في تأثر بالغ، ثمّ رجوته في إهدائنا صورة لفخامته لنشرها في مجلة الإجيبسيان"..

****

5- أفضت كثيراً في كتابك "هوامش على دفتر أحوال مصر" في رصد أمثلة والغوص في تفاصيل كثيرة عن حركة الكشافة في مصر فما الهدف؟

دعني أضيف عليهم مثالاً آخر هنا أجعله منصة للانطلاق نحو الهدف والمثال من العدد ٤٦٥ من مجلة اللطائف المصورة في ٧ يناير ١٩٢٤ م والتي أفردت مساحة لصورة الكشاف بفرقة "وادي النيل" بالإسكندرية "محمد عبد الرحمن الدرجيني" الذي رفع من بين عجلات ترمواي الإسكندرية بحرياً أمريكياً يدعى "إبيك ريس" وقد أنعم عليه قومندان الفرقة بميدالية الاستحقاق "فنثني على مروءته"..

ماذا ترى في هذا المثال الواحد؟! مروءة وإقدام - إنسانية بلا حدود منزهة عن الدين والعرق - صورة مشرقة لمصر وأبنائها... كلّ هذا وأكثر استخرجناه من مثال واحد فما بالك بعشرات الأمثلة التي تحدثنا عنها في السابق.

استحضار هذه الصور والتأكيد عليها شديد الأهمية للإنماء القيميّ الأخلاقيّ في مواجهة صور البلطجة والإرهاب في واقعنا اليوم، فالحركة الكشفية هي السبيل نحو تنمية الطاقات الأخلاقيّة لدى شبابنا وتذويب الفوارق العقائدية والمذهبية والالتفاف تحت راية واحدة عنوانها "الإنسانية". هذا من شأنه أن يرسّخ الانتماء الوطنيّ على نحو رشيد.

لا شك أنّ الحركة الكشفية خيار من الماضي، لكنّه خيارٌ صحيّ صالح لإعادة بعث المروءة من جديد، فقد كانت في الماضي حركة بنّاءة بلغت ذروة نهضتها وأوج نجاحها في عهد الملك فاروق الذي ارتبطت باسمه من طفولته وحمل لقب "الكشاف الأوّل"

وكذلك زوجته الملكة فريدة، ثمّ جمال عبد الناصر، ولكنّها خفتت مع الأيام، ولقد شهدت ملامح هذا التراجع وأنا في الجامعة في عهد الرئيس مبارك ويرجع المختصون هذا التراجع بحسب بوابة الشروق في ٢٢ مارس ٢٠١٤ م إلى "ضعف دور الدولة وعدم دعمها لأنشطة الكشافة" وقصر دورها واختزال مساحته في "أغراض ترفيهية واحتفالية فقط في الاحتفالات القومية لتقديم صورة لطيفة دون اهتمام بالجانب الحقيقيّ والأساسيّ للكشافة وهو الجانب التربوي".

****

6- هل من المعقول أنّه لا يوجد سيدي العريان سوى الراهب برسوم كما أوردت بكتابك "رواق القصص الرمضاني" وهل وصل الخلط لدى المؤرخين والصوفيين لهذا الحد؟!

هذا مجرد انتخاب مني لإحدى النظريات لخدمة موضوع معين وهو حقوق أهل الذمة.. لكن على مدار التاريخ يوجد مئات القصص لمن يمكن أن نطلق عليهم (سيدي العريان) بعضها قديم وكثير منها حديث.. ومن أمثلة القديم ما جاء في تاريخ الجبرتي (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) عام ١٢٠٧ هجرية (١٧٩٣م تقريباً ميلادياً) عن مجذوب يدعى (علي البكري) كان حليق اللحية، وأقام لسنوات متجرداً عرياناً يجول في الأسواق وشقياناً لا يجد ما يسد رمقه والجوع يأكله.. بيده نبوت طويل يصحبه في أغلب الأوقات وتتبعه امرأة معروفة بالشيخة أمونة.. يتكلم فيخلط في كلامه.. تارة يضحك وتارة يسب ويشتم.. "ولابد من مصادفة بعض الألفاظ لما في نفس بعض الزائرين وذوي الحاجات فيعدون ذلك كشفًا واطلاعًا على ما في نفوسهم وخطرات قلوبهم".. هيئة الرجل المسكين أطمعت أخاه في استغلاله فروج لكراماته، فأقبل الناس عليه أشتاتاً خاصةً النساء لزيارته ودفع النذور والهبات وإحضار الطعام وفي الوقت نفسه حجر على المسكين ومنعه من الخروج ومن حلق لحيته حتى عظمت وكست أغلب وجهه، كما سمن بدنه وكبر جسده من فرط الطعام الذي يحضره الناس والراحة، فأوكل أخوه من يعتني به ويراعيه طوال الوقت فقد غدا البيضة التي تدر له ذهباً "واتسعت دنياه ونصبه شبكة لصيده"... ولما مات هذا المجذوب المسكين في العام الذي أشرنا له آنفاً في تاريخ الجبرتي.. اجتمع الناس لجنازته ودفنوه في مسجد الشرايبي بالقرب من جامع الرويعي وأقاموا على قبره

مقصورة ومقاماً للزيارة وعمل له مولد "واجتمع عند مدفنه في ليالٍ وميعادات قراء ومنشدون وازدحم عند أصناف الخلائق ويختلط النساء بالرجال ومات أخوه أيضًا بعده" ..

ومن النظائر لهذه القصة في ربوع مصر الكثير، ففي قنا يقام كلّ عام مولد الشيخ جاد الكريم الملقب بالعريان بمركز نقادة ومقامه بني بجوار حفرة بعمق ٣ أمتار مكث فيها أكثر من ٥٥ عاماً عارياً دون انقطاع (المصدر: بوابة اليوم السابع ١٩ مايو ٢٠٢٢م). كما يوجد ضريح باسم ضريح سيدي العريان في محافظة القليوبية في وسط أرض زراعية وتكسوه مقاطع خشبية داخلها حجر جرانيت كان يجلس عليه صاحب الضريح (المصدر: بوابة الدستور ٢٥ مارس ٢٠٢١ م).

بالطبع في كلّ قرى مصر أضرحة تختلط أسماء أصحابها ولا يُعرَفُ لهم تاريخ على وجه الدقة والتحديد سوى ما يردده الأهالي عنهم وأغلبه من المبالغات والأساطير التي تتناقلها الألسنة دون فحص أو تمحيص.. في آخر إجازاتي لمصر زرت مسقط رأسي قريتي الميمونة مركز منيا القمح محافظة الشرقية ولأوّل مرة أقف أمام مقام الشيخ سعيد بن ياقوت العرش.. دائماً وأنا صغير كان يتردد اسم الشيخ سعيد على مقربة من مسامعي، فقد كانت والدتي رحمها الله مداومة على دفع النذور في هذا المقام طمعاً في شفاء أخي رحمه الله.. لكن هذه المرة الأولى التي أشاهد فيها المقام ويتملكني الفضول للاقتراب منه ومطالعة اسم صاحبه بالكامل... ترى هل هو ابن ياقوت العرش حقاً؟ أو يرتبط به بأي صلة قرابة أو أحد تلامذته، وانتسب إليه علماً؟! لو كان الأمر أحد هذه الفروض فما الذي حمله للمجيء والمكوث في هذه القرية النائية؟ والثابت أنّ ياقوت العرش كانت إقامته بالإسكندرية وكان في بدايات

حياته عبداً واشتراه المرسي أبو العباس وأعتقه وربّاه وعلّمه وزوّجه ابنته (مهجة) كما تولى الخلافة الشاذلية من بعده ولياقوت العرش لقاء شهير بابن بطوطة في الإسكندرية... فهل أنجب (سعيد) فعلاً أم أنّه انتساب محبة أم انتساب علم أم انتساب خدّاع؟! والله أعلى وأعلم.. مسائل يبدو البحث فيها كالحرث في الماء مع كثرة القصص الشعبيّ وأوهام صناعِه.

****

-7 نقطة استوقفتني في كتابك "نوستالجيا الواقع والأوهام".. ما علاقة طه حسين بمعهد التمثيل؟ وما أسباب القرار الرجعي الذي اتخذه وزير التقاليد بشأنه؟!

اسمح لي أن أجيب في البداية على الشق الثاني من السؤال وهو ما الذي دعا وزير المعارف محمد حلمي عيسى -أو وزير التقاليد كما يقولون- لإلغاء المعهد وهل قرار الإلغاء من "الباب للطاق" كما يقولون في المثل أم تقف وراءَه أسبابٌ لها من الوجاهة نصيب..

مشكلة الوزارة والمجتمع الثقافي بأسره مع المعهد بدأت مع تصاعد حجم الخلافات بين صناعِهِ من ناحية علاوة على أنّ مخرجات هذا الكيان التعليمي (**outcome**) بدت هزيلة وأقرب للفشل منها للنجاح.

ذلك أنّ كلمة ألقاها "محمد بيك العشماوي" سكرتير عام وزارة المعارف نشرتها مجلة "الصباح" نسب فيها الفضل في إنشاء المعهد لجهود "زكي طليمات" ألهبت وأججت روح الغيرة لدى "يوسف وهبي بيك" الذي رأى في ذلك إجحافاً لدور نهضة الفرق المسرحية في نشأة المعهد وأنّ الفكرة في الأساس تعود للأستاذ محمود مراد أفندي الذي رفعها لوزارة المعارف، وكذلك للأستاذ عبد الرحمن رشدي الذي رفعها لجلالة الملك. خلافٌ عابرٌ كان يمكن أن يمرّ مرور الكرام لولا دخول الطالبة الأولى على المعهد على الخط وهي (زوزو حمدي الحكيم) لتؤازر أستاذها زكي طليمات في مواجهة يوسف وهبي ويا ليتها ما فعلت.. فقد كتبت في مجلة "الصرخة" رداً أشبه بوصلة من "الردح" وصفت فيه يوسف بيك بالتبجح وتحدته باعتباره زعيماً للتمثيل

-كما يقول عن نفسه - في أن يؤدي معها امتحاناً "أمام أية لجنة تشكل من الأجانب والوطنيين الذين لهم إلمام بفنون التمثيل... وأنا الضمينة (تقصد نفسها) أن أتفوق عليه وأن أثبت جهله بكل هذه الفنون وأثبت كذبه حين يقول إنه درس التمثيل في معاهد إيطاليا". هذا الرد أفرز ردود فعل خطيرة ووضع مسألة استمرار المعهد على المحك إذ أصبح جلياً أمام العيان أنّ الاحترام المفترض بين طلبة المعهد وأساتذته مفتقد بشكل كبير.

مما زاد الطين بلة سفر زكي طليمات لشراء أدوات تعليم فن الإضاءة للطلاب وإحضار معلمة للرقص التوقيعي وهو الرقص المعتمد على الموسيقى من فرنسا! هذا كله عجّل بالقرار الحكيم من وزير المعارف بإلغاء المعهد وجعله قاعة للمحاضرات العامة، وكانت ردود الوزير على الهجوم ضده (من بينهم طه حسين) متوازناً وشجاعاً ومحترماً، فحينما سئل الوزير مثلاً عن سبب إلغاء الرقص التوقيعي، رد بالقول: "إذا كان الرقص لازماً في التمثيل فليتعلمه من يشاء في أماكنه وعلى نفقته لا في دور الحكومة وعلى نفقتها"، وحينما سئل عن تعجل الوزارة في إلغاء المعهد دون صبر منها في انتهاء مدة الثلاث سنوات المقررة للدراسة ريثما تتخرج أول دفعة وبعدها يتم تقييم التجربة ليجيب الوزير بعدم قدرة الوزارة على تحمل "نتائج سلوك طلبة المعهد وطالباته طوال السنتين المتبقيتين" في إشارة إلى حادثة التراشق بين الطالبة الأولى وأستاذها يوسف وهبي، وكأنّه أراد أن يقول كما يقول المثل الشعبي: "الجواب باين من عنوانه".

هذا مجمل الحكاية يا سيدي السائل.

الآن حان دورك عزيزي القارئ... خذ نفساً عميقاً وتخيل نفسك قد عدت لهذا العهد وتقلّدت منصب وزير المعارف، فماذا أنت فاعل؟! وزارة مواردها محدودة وحصتها في ميزانية الدولة متواضعة لضيق سعة اليد مع سداد الديون المتراكمة منذ عهد إسماعيل باشا... الوزارة بهذه الإمكانيات الهزيلة تتحرك بخطى عرجاء لتتوسع في إنشاء المدارس لاستيعاب أعداد أكبر من الطلاب وإرسال البعثات لإعداد معلمين أكفاء في العلوم الحديثة والأساسية للطلاب ومع كلّ هذا فالبلاد تحبو في مسار طويل وصعب لتخط اسمها في سجل المدنية الحديثة.. مع هذه العراقيل والتحديات هل مطلوب من الوزارة أن تخصص جزءاً من ميزانيتها المتواضعة التي تكفي بالكاد المهام الأساسية لجلب معلمة للرقص من فرنسا وتحمل تكاليف استقدامها ومعيشتها وراتبها؟! هل وأنت وزيرٌ للمعارف يا عزيزي القارئ في ظروف كهذه ستضع الرقص على أجندة أولويات وزارتك التي لم تكمل الخطوط الأولى في رسالتها نحو التربية والتعليم في بلد جلّه من الأميين؟!

عرفت أستاذاً جامعياً كان يقول لي: "يا محمد إنّ الدرجات العلمية أمانة والعرق دساس". فسألته ذات مرة عن مقصده قال: "أنا لا أمنح الدرجة إلا لذي أخلاق فالأخلاق عندي قبل العلم وهي بالتأكيد مهده وحارس أمانته، ولقد حفظت قولاً مجهول النسب، لكنّه أحق أن يتبع.. يقول: "لا تعلموا أولاد السِّفْلة العلم فإن علمتموهم فلا تولوهم القضاء والولاية" وصناعة أستاذٍ جامعيّ بلا أخلاق خطر على المجتمع وتماسك بنيانه".

نأتي إلى الشق الأول من السؤال وهو علاقة طه حسين بمعهد التمثيل.. كان طه حسين (اسمه الحقيقي في الوثائق الرسمية طاهر حسين علي ويبقى سبب إصراره على

تغيير اسمه لغزاً محيراً) من ضمن أعضاء لجنة امتحان الطلبة والطالبات المتقدمين للالتحاق بمعهد التمثيل والتي كان يرأسها حضرة الأستاذ محمد أحمد العشماوي بيك السكرتير العام لوزارة المعارف ومن أعضائها جورج أبيض وزكي طليمات وإبراهيم رمزي بيك..

طبعاً المعهد الوليد كان فرصة لعميد الأدب (العربي) لنشر الأدب اليوناني والروماني! فبحسب متابعات مجلة الصباح أعداد شهري يناير وفبراير ١٩٣١ م كان طه حسين يكلف طلاب المعهد بتأليف مسرحيات صغيرة مقتبسة من الإلياذة ويرصد مكافات مالية للأوائل، كما نشرت المجلة محاضرته في الأدب التمثيليّ، وكلها نابعة من أدب اليونان والأمر ذاته في المحاضرة التي نشرتها مجلة "أبو الهول" في مايو ١٩٣١ م للرجل عن تاريخ الأدب المسرحيّ، وكلّه من نبع اليونان ومناهل آدابهم ولا عزاء للأدب العربيّ الذي جفّت منابعه حينما ظلم نفسه في انتسابه له طوال هذه العهود.

فقدان طه حسين لمنبر ثقافي كهذا لنشر أفكاره اتفقنا أو اختلفنا معها تعد خسارة أدبية.

لكن هل لا يوجد خسائر أخرى في المسألة استدعت سخطه؟!

هذا يدفعنا للتساؤل هل كان عمل طه حسين خارج الحرم الجامعي يدر عليه دخلاً.. بالتأكيد فعمله بالصحف الحزبية كان يجني منه أموالاً، وهذا مثبت بشهادة زوجته كما أنّ ظهوره الإعلامي كان أيضاً بمقابل. قرأت مؤخراً مقالاً للدكتور أيمن منصور ندا بالأهرام في ٢٧ سبتمبر ٢٠٢٣م تحت عنوان "أساتذتنا المذيعون" تحدث أنّ

"الأستاذ العقاد لا يظهر في وسائل الإعلام إلا بمقابل مجزٍ له، وكذلك كان الدكتور طه حسين يشترط مبلغاً مليونياً بتقديرات هذه الأيام".

لذا استشف من هذا وبغير جزم أنّ عمله في معهد كالتمثيل ربما كان يدر عليه ربحاً وسيتضرر مالياً بإغلاقه.

حاجة عميد الأدب (العربيّ) المادية تكشفها ورقة عرفية عليها خاتم طه حسين لطلعت حرب مؤرخة في ١١ أغسطس ١٩٣٤ م يقول فيها: "تسلمت من حضرة صاحب السعادة طلعت حرب باشا مبلغ مائتي جنيه تفضّل بإقراضه لي على أن أرده متى أديت ما عليّ لبنك مصر... فأسجل هذا اعترافاً بالجميل وتقديراً للفضل وشكراً للصنيعة والتزاماً بالوفاء (الطريف في الورقة هو الشطب على "ووعداً" وإبدالها بكلمة "والتزاماً" وهو ما فسره البعض بكونه طلباً من طلعت حرب لضمان الإلزامية والجدية في السداد).. ختم طه حسين"... طبعاً نحن نورد محتوى هذه الورقة على سبيل الاستئناس لكنّها لا تصلح كمصدر تاريخيّ لعدم التيقن من صحة الأصل وهي كاشفة في العموم عن حاجة طه حسين للمال وربما كان سبباً آخر لتضرره من إغلاق المعهد...

لكن تبقى الوثيقة الأكثر أهمية ودلالة لبيان الوضع المالي للدكتور طه حسين بشكل جليّ لا يحتمل الالتباس أو الاتهام هي التي كشف عنها الدكتور سيد علي إسماعيل في مقاله "وثائق طه حسين المجهولة" والتي تتعلق بإقرار الذمة المالية للدكتور طه حسين في ٤ أكتوبر ١٩٥٢ م، وذلك عن فترة خدمته الحكومية من ١٩١٤م-١٩٥٢م وهي على النحو التالي:

"١٣٠٠ جنيه سنوياً مرتب أستاذ جامعي – ١٢٥ جنيه معاش وزير شهرياً – ٢٠ جنيه شهرياً مكافأة المجمع اللغوي –٨٢٨ جنيه رصيد في بنك مصر –٢٠ جنيه قيمة ٥أسهم حرير صناعي– ٢٠٠٠ جنيه أثاث منزلي –عربة بويك ٦٠٠ جنيه مؤمن عليها ببوليصة تأمين بنفس القيمة – بوليصة تأمين للمنزل ضد السرقة والحريق ٤٠٠٠ جنيه . " أي أننا أمام كاتب عصامي بدرجة موظف كان يعتمد كلّ الاعتماد على دخله المحدود من أعماله المتعددة وليس شيئاً آخر.. الطريف أنّ الشق الأكبر من ثروة الدكتور طه حسين كان من نصيب زوجته الفرنسية السيدة "سوزان" طبقاً للإقرار السابق حيث بلغ رصيدها في بنك مصر "٣٧٧٨ جنيه "(١٠٠٠ جنيه جائزة فؤاد الأول للآداب الممنوحة لزوجها وتحدثنا عنها في تاريخ حائر بين بان وآن– ١٥٠٠ جنيه تصفية مجلة الكاتب المصري وهي مجلة أنشأتها عائلة آل هراري اليهودية المصرية الثرية، وأوكلت رئاسة تحريرها لطه حسين وصدر منها ٣٢ عدد في الفترة من ١٩٤٥م وحتى ١٩٤٨ م حيث توقفت إثر اندلاع حرب فلسطين، وأعتقد أنّ توقفها كان لإحجام الكُتّاب العرب عن الكتابة فيها خشية اتهامهم بالتطبيع مع الكيان الصهيوني الوليد وقتها –٣٠٠ جنيه قيمة تعاقد فريد الأطرش على إنتاج وبطولة فيلم عن قصة "دعاء الكروان" لكن المخرج هنري بركات أقنعه بالتراجع لعدم مناسبة دور الباشمهندس المتلاعب بالفتيات لشخصية فريد الحالمة والواضح أنّه تنازل عن المقدم إرضاءً لطه حسين).

****

8- حينما ناقشت قضايا المصريين في الخارج في القرن الماضي في كتابك "هوامش على دفتر أحوال مصر" فكأنك لم تكشف بعض الحقائق فحسب ولكنك ومن غير قصد أسأت إلى صورة مصر الماضي التي نعتز بها ولها في نفوسنا نوستالجيا خاصة؟

لقد اعتمدتُ منهجاً في كتابي هذا هو الاعتماد على أرشيف الصحافة المصرية في أكثر من مائة عام بشكل مباشر، ولو كانت هذه الصور التي نقلتها من الصحف والمجلات القديمة في هذه الآونة تسيء لمصر فالأولى أن تكون قد بادرت هذه الصحف لاستبعاد مثل هذه القضايا من صفحاتها، ولكنّها فعلت العكس من باب المكاشفة ومواجهة الذات ونقد الواقع والصفات الذميمة من أجل النهوض بالمجتمع وتهذيبه وترقية أخلاقه، وليس في ذلك عيب فالصحافة الأوروبية من حولهم وإلى يومنا هذا لا تنفك عن جلد الذات ومكاشفة مجتمعاتها بأخطائها دون مواربة لذا فهي من تقدم لتقدم باستمرار بفضل الأخذ بالأسباب المعينة على ذلك..

دعونا من التقليب في أرشيف الصحافة المصرية وننزل وسط الناس وخير وسيلة هي خطاباتهم الخاصة والتي تكشف عن مكنون صدورهم وانطباعاتهم وحسبنا أن نورد هنا خطاب من (إنعام سعيد) الطالبة بمدرسة السنية والمبتعثة إلى إنجلترا في بعثة الفتيات عام ١٩٢٦ م لدراسة الرسم والتربية الفنية وحصلت على دبلوم هيئة التعليم البريطاني في مجال الرسم عام ١٩٢٩م ولأنّ الشيء بالشيء يذكر، فهي شقيقة الدكتور رشدي سعيد أحد أهم علماء الجيولوجيا المصريين.

في الخطاب الذي أشرنا إليه آنفاً والذي استعرضت "بوابة الأهرام" نصه في ١٦ مارس ٢٠٢١ م، تحكي عن نظرة بعض الإنجليز لمصر بأنّها "بلاد همجية وصحراء لا غير وجمال سائرة في كلّ جهة" والخطاب مؤرخ بتاريخ ٢٣ مارس ١٩٣٠ م.. هذه الصورة النمطية لم تكن خافية عن صانع القرار الذي قرر أن يرسل البعثات الخارجية ليغير هذه الصورة ويقدم شعبه في صورة حضارية.. لم ينغمس صاحب القرار وهو الملك فؤاد في تلاسن وعنجهية بأنّنا أصحاب "سبعة آلاف سنة حضارة" وجلس يحتسي شرابه وترك شعبه في أتون جهل وتخلف، بل قرر أن يغير الصورة بارتياد سفينة العلم الحديث، ولكن مع المحافظة على تقاليد الأمة المصرية وهذا أمر مهم.

بحسب مجلة المصور وسيراً على هدى الملك فؤاد كانت وصية وزير المعارف للبعثة التي ضمّت بالإضافة لإنعام كلّ من: زكية عزيز يوسف - وصفيه إبراهيم عبد الله - إقبال حجازي- فتحية سليمان علي عزت- فتحية حسن سليمان - سعاد محمود - عزيزة مجدي - حكمت سعيد صبح - إحسان حمزة- إحسان مرسي عابد علاوة على نظيرة نيقولا (أبلة نظيرة) بدرس النظام العائلي و"العناية بالأخلاق" في الدولة المضيفة (يقصد لندن) فالعلوم "وحدها ليست كلّ شيء إنما هي الأخلاق".. إنّه البناء أيها السادة في شخصية المصري وتقديمها للآخر بشكل عمليّ.

لقد كانت صورة الشرقيّ وكأنّه كائن من عالم مجهول، مؤسفة لأمة علمت العالم في العهود الإسلامية المبكرة، فإذا بها تتحول مع الوقت لتصبح في ذيل الأمم.. لو أمعنا النظر مثلاً في رحلة "محمد أمين فكري" قاضي محكمة استئناف مصر الأهلية لحضور المؤتمر الثامن لعلماء الاستشراق المنعقد في السويد والنرويج والتي كانت على نفقة الخديوي عباس حلمي الثاني، لهذا حينما ضمن تفاصيل الرحلة (بدأت من

الإسكندرية مروراً بجزيرة كريت وبعض جزر اليونان ثمّ إيطاليا ومنها إلى سويسرا ثمّ فرنسا ومنها لإنجلترا وأخيراً السويد والنرويج) في كتاب حمل عنوان "إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا ١٨٩٢م" كان المديح للخديوي ممهوراً بتوقيع "عبدكم".. كان من ضمن ما أورده محمد أمين فكري في كتابه نظرة الأوروبين لهم فالناس كانت "تتكاثر حولنا ويهرعون إلينا من كلّ فجٍ بغاية الإسراع حتّى يحيطوا بنا للتفرج على هيئتنا المشرقية غير المعهودة عندهم"...

الواضح أنّ الصورة لم تختلف مع مضي الزمن ففي باب (بريدي) بآخر ساعة عام ١٩٤٩ م والذي كان يجيب فيه الأستاذ محمد التابعي على أسئلة بعض قرائه، ومنها كان سؤالاً عن الدعاية لمصر قال: "ليست هناك دعاية مطلقاً وأنّ الناس في كلّ بلد زرته يجهلون كلّ شيء عن مصر إلا أنّها قطعة من الصحراء وأنّ معظم أهلها من الزنوج" ويضيف قائلاً في معرض رده "وكان ولا يزال بعض الأوروبيين يبدي عجبه ودهشته كلما قابل سيداً أو سيدة حسنة الزيّ أو بيضاء اللون وعرف أنّها مصرية" وأنّ بعض من صادفهم يعتقد أنّ مصر "مستعمرة بريطانية" تحتاج لفيزا من قنصلية بريطانيا للقدوم إليها.

نعود لخطاب إنعام مرة أخرى لنستعرض حادثة سرقة تعرضت لها في لندن حيث لم يسرق اللص سوى "خاتم مس جرين" تاركاً الملابس وأدوات الطهي الفضية وتقارنه بحرامية مصر، فهو أكثر تخصصاً واحترافية "فوجهته النقود أو ما شابهها" والطريف أنّها تبدي اندهاشاً حول التكاليف الباهظة التي صاحبت استقبال الأمة المصرية لملك وملكة البلجيك.. لقد كان الناس قديماً كما نرى أكثر أريحية وفي حل من أمرهم في مناقشة القضايا كافة دون خوف مما نسميه "الإضرار بسمعة مصر".

أما وقد تعمّقنا في هذه الوجهة، فأجد الفرصة مواتية للحديث عن إجابة سؤال لا يحتاج لإفراد مساحة أكثر من هذه ومتعلق بجدوى تخصيص مساحة بكلّ كتاب لي لمناقشة صور من أدب الرحلة في الماضي. هذا المبحث شديد الأهمية كما رأينا في المناقشة السابقة، فالمصريّ يستطيع أن يكون سفيراً لبلاده في كلّ موطئ قدم يعبر إليه فالتزامه بالأخلاق ودعوته لدينه وبحثه بين دروب العلم صورة بلا شك مبهرة وجديرة بالاهتمام.

وتعالوا نستدعي مثالاً من الماضي لكيفية أن نكون سفراء لديننا الحنيف بالسيدة "نور صادق وهبي" (رئيسة شركة ياسياتا نور ٢١ ش سليمان باشا بمصر تليفون ٤٤٧٤١ والعنوان التلغرافي نيفا لينور) صاحبة أوّل فيلم تسجيلي مصريّ ناطق عن الحج عام ١٩٣٦ م، وكان يتضمن ١٧ مشهداً وتكلف ١٧ ألف جنيه وبحسب نسخة من بلشور الفيلم والذي حمل صورتيّ الملك فؤاد والملك عبد العزيز آل سعود فهو "الشريط الناطق الأول الفريد في العالم الذي أخذت مناظره خفية (كان التصوير للأماكن المقدسة ممنوعاً في ذلك الوقت) وتم إخراجه وإعداده في أكثر من عشر سنوات" وتضمن البلشور الهدف من الفيلم وهو "الدعاية للدين الإسلامي الحنيف والحث على أداء فريضة الحج (ما أنبل هذا الهدف وما أروع الرحلة)".. وبحسب البلشور فقد تولى زوجها (الواضح من صورتها على البلشور أنّها لم تكن محجبة والله أعلم) الوصف التاريخي لكلّ منظر من مناظر الحج والحفلة الرسمية للمحمل الشريف و"ما يمت إلى الفريضة في مصر والحجاز في الغابر والحاضر".. وموزع الشريط "أ. نحاس فيلم ١ شارع دجلة بميدان إسماعيل بالإسكندرية تليفون ٢٢٢٦١"..

9- تحدثت في كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر" عن أمثلة من تشويه سلوكيات رجال الأسرة المالكة في مصر بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ومنها قصة عمر أفندي والخديوي إسماعيل.. هل تستعرض أمثلة أخرى من وحي اهتمامك بأرشيف الصحافة المصرية؟!

هل شاهدت من قبل إسماعيل ياسين في شخصية المهندس نافع الذي بنى منزلاً لأحد العملاء دون باب؟! هذا تماماً ما حاولت تصويره مجلة "الاثنين والدنيا" لتشويه الأمير "يوسف كمال" ففي عددها ١١٨٩ في ٢٥ مارس ١٩٥٧ م وتحت عنوان "عجائب الإقطاع تفوق عجائب الدنيا السبع!" عددت المجلة من حوادث شذوذ الأمير السابق وأنّه رسم تصميم منزل لاثنين من موظفيه دون سلالم للصعود! وأنّ الموظف لم يستطع السكن وفي الوقت ذاته خشي أن يبلغ الأمير الذي تدارك المسألة بعد ذلك وأنّ الأمير شيّد قصراً منيفاً من حجرة واحدة لنومه وقصراً آخر على بعد ٥٠٠ متر كحجرة طعام وآخَر ليكون مطبخاً خاصاً وأنّ الأمير في ذلك كان يمارس التصميم بنفسه فهو "لا يعترف بالهندسة والنظم الهندسية ولا المهندسين ولهذا لم يدخل قصره مهندس واحد"..

تصور أنّ هذا يقال بحق الأمير الذي أسّس مدرسة الفنون الجميلة وبحق قصره في مدينة نجع حمادي بمحافظة قنا والذي أشرف على بنائه مهندس السرايات الخديوية "أنطونيو لاشياك" والمسجل كأثر إسلامي ويوجد به "أسانسير" خشبي صنعه الأمير لوالدته مريضة القلب.

هل تكتفي المجلة بذلك؟! لا طبعاً بل أرادت أن تجعل من الرجل أضحوكة عصره وأنّه أراد أن ينشئ مسجداً للأهالي "ولكنّه أبى إلا أن يزوّد المسجد بقبة كقباب الأولياء في مساجدهم" وأحضر قبة رائعة وأعلن أنّها "مبروكة" على الرغم من عدم وجود شيخ تحتها "وأمر زُرّاعه وفلاحيه بالصلاة في المسجد والطواف حول القبة ووضع النذر للشيخ الغائب أو الشيخ المنتظر نومه تحت القبة".. طبعاً كلام مؤسف يحمل بهتاناً وزوراً ذلك أنّ ضريح الشيخ عمران الأنصاري (ولي صوفيّ مغربيّ بحسب بعض الروايات) سابقاً على بناء القصر والأمير يوسف كمال قام بتجديده وتعهده بالعناية ومما يروى أنّه همّ بإزالته في البداية، لكن عدل عن ذلك لنجاته من افتراس أسد أثناء إحدى رحلاته للصيد ببركة الشيخ عمران..

أما عن ارتباط الأمير بنجع حمادي وقضائه أربعين يوماً كلّ عام بها، فتقدم له المجلة تفسيراً من أعجب ما يكون وهو غرامه "بنقيق الضفادع إلى حد أن أعد مربعاً من خشب الأرو (أفضل أنواع الخشب وأغلاها وأكثرها متانة ويمتاز بتجزيعاته الكثيرة المتعرّجة) على الطراز الأرابيسك يجلس عليه منفرداً ومطلاً على النيل من الساعة السابعة مساءً إلى العاشرة طوال الأربعين ليلة في نجع حمادي "لا لشيء إلا ليستمع إلى أصوات الضفادع".

وكأنّ الأمير الذي يملك في الصعيد وبحسب اعتراف المجلة نفسها "أكثر من ستة عشر ألف فدان عدا المنشآت العامة والقصور والحدائق" لم يكن لديه دائرة ومصالح ومشاغل يتابعها... لكنّه التشويه لمجرد التشويه.

مسألة ولعة بنقيق الضفادع ربما كان راجعاً لنزعته الصوفية، وتأمله في مخلوقات الله وتسبيحها ففي قصره كان يطلق على قاعة الموسيقى اسم "ابن الفارض" وهو الملقب بسلطان العاشقين عند الصوفية.. وفي الأثر أنّ نقيق الضفدع تسبيح لله تعالى.. قال سفيان: يقال: إنّه ليس شيء أكثر ذكراً لله من الضفدع. - وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما، قال: لا تَقتُلوا الضَّفادِعَ؛ فإنَّ نَقيقَها تَسبيحٌ.. وقد ورد نهي النبيّ عن قتلها، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ «أَنَّ طَبِيبًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ضِفْدَعٍ يَجْعَلُهَا فِي دَوَاءٍ، فَنَهَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِهَا». وعن أنس رضي الله عنه (لا تقتلوا الضفدع، فإنها مرت بنار إبراهيم عليه السلام، فحملت في أفواهها الماء ورشت به على النار). (نعود للأمير وحتى نكون منصفين فالاتهام الوحيد الموضوعي بالمجلة هو ما جاء بالعنوان من كونه "إقطاعياً" أما ما دون ذلك فاتهامات ساذجة.

ففي التحقيق مع عصام الدين حفني ناصف عندما أصدر كتاب التجديد الاجتماعي عام ١٩٣١ م سئل: "س: تشير في كتابك إلى الأموال التي تنفق في سفه سخيف وتكفي لتحسين حال الفلاح إلى حد ما فماذا تقصد؟

ج: أقصد مثلاً الأموال التي تنفق على الزينة في أعياد جلالة الملك والبرنس يوسف كمال مثلاً عنده ٤٠ كلباً للصيد يذبح لها خرفاناً، والفلاحون العاملون في أرضه لا يأكلون سوى المش"...

طبعاً أهمية هذه الرواية تنبع من كونها قبل ثورة ١٩٥٢م بطبيعة الحال.

10- في كتاب "رواق القصص الرمضاني" أتيت على تشبيه مجلة آخر ساعة لبعض السياسيين ببعض الحيوانات.. فهل هذا المسلك خاص بهذه المجلة فقط وهل اتخذ هؤلاء السياسيون إجراء ضد المجلة؟!

أكثر ما يميز سياسيّي الفترة الملكية سعة صدورهم، وتقبل هذا النوع من النقد ومسألة النقد الساخر لا تخص آخر ساعة وحدها، بل كانت أشبه بالمنهج العام وسأعطيك مثالاً من نفس الفترة، ولكن من مجلة المصور في عددها ١٢٢١ في ٥ مارس ١٩٤٨م وتحت عنوان "لو... لو قضى القضاء والقدر على زعمائنا الكبار أن يحترفوا الحرف وأن يودعوا اليسر والجاه... فماذا يختار لهم (المنحوس أو الملحوس)؟!

وجاءت مداعبات المجلة على النحو التالي: "شريف صبري باشا: بائع زهور - علي ماهر باشا: مبخراتي - النقراشي: مخبر بالمحافظة - هيكل باشا: بائع كتب- صدقي باشا: حاوٍ.. جلا جلا اطلع الثعابين والأرانب من المناخير.. جلا.. نعرف اللي في الجيوب وفي القلوب-حافظ رمضان باشا: ترزي إفرنجي.. نفصل للزعماء والكبراء والأقطاب ونصلح للأحزاب.. عندنا أحسن قماش وأحسن تفصيل" ..

وفي قضية مجوهرات "زينب هانم الوكيل" حرم النحاس التي أفردنا لها في كتاب هوامش على دفتر أحوال مصر نجد مجلة آخر ساعة في عددها ٧٢٢ في ٢٥ أغسطس ١٩٤٨ م تتهكم على سلوك الهانم في فتح "المندل" للبحث عن مجوهراتها المفقودة وتتندر عليه بطريقة عملية طريفة بأن ادعت في تقرير مصور لها أنّها استدعت "منوماً روحانياً ووسيطاً" للبحث عن السارق وتبيّن لها أنّ اسمه "محمود علي"!

طبعاً مساحة الحرية بالصحافة لم تكن مطلقة وعلى مصراعيها على الدوام وفي المطلق، بل كان لها سقف وخطوط حمراء أحياناً ومساحات لا يمكن تجاوزها منها الشأن الخارجي ففي اللطائف المصورة في ٢٧ فبراير ١٩٣٣م نجد خبر اعتقال الأستاذ "عصام الدين حفني ناصف" لإصداره منشور مطبوع يفصل فيه لمسألة "واحة جغبوب" ومطامع إيطاليا وسياستها الاستعمارية، وقد ضبط البوليس المنشور مع "محمد إبراهيم" سائق سيارة الشريف "عباس حليم" كما داهم بيت الأستاذ عصام.. خطورة هذا المنشور أنّه جاء بالتزامن مع زيارة ملك إيطاليا "فيكتور إيمانويل" لمصر ومن المعروف العلاقات الوطيدة والصداقة التي جمعت الملك فؤاد والملك الإيطالي وقد وصلت حفاوة الاستقبال إلى حد تسمية ميدان سموحة في الإسكندرية باسم "عمانويل".. الطريف أنّ الإسكندرية وبعدها بأعوام وتحديداً عام ١٩٤٣ م كانت المحطة الأخيرة لإيمانويل بعد فشله في عزل "موسوليني" الزعيم الفاشي إثر إخفاقات الأخير الكارثية في الحرب العالمية الثانية..

نأتي لذكر عصام الدين حفني ناصف وهو ما يمكن أن نعتبره التجسيد الحي للمثقف الليبرالي المعارض الذي لا ينتمي سوى لذاته، فعلى الرغم من اشتراكه في ثورة ١٩١٩م والقبض عليه في أثنائها، ثمّ انضمامه لحزب الوفد لكن سرعان ما انقلب عليه وعلى زعيمه سعد زغلول واتهمه بالمساومة على القضية الوطنية وانضم للحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل لكن لم يلبث أن انفصل عنه متهماً إياه بالنزعة الثورية المفرطة ذات التطرف السياسي والاجتماعي.

وعلى الرغم من اعتناقه الفكر الاشتراكي إلا أنّه وقف معارضاً لتأسيس حزب اشتراكي في مصر. تميّز عصام الدين بنظرة ثاقبة نلمحها في كتبه التي تركزت على اليهودية

مبكراً ومنها: كتاب اليهودية في العقيدة والتاريخ - اليهودية بين الأسطورة والتاريخية - محنة التوراة على أيدي اليهود.

والحقيقة أنّ هذا النموذج لم أجد له مثيلاً سوى الصحفي "أحمد أبو الخير حافظ نجيب" (تحدثنا عن والده حافظ نجيب في كتاب مرآة التاريخ) والذي اتخذ مواقف نابعة من ذاته دفع ثمنها حياته فعارض الملك والإنجليز وكذلك الثورة في مهدها وهو صاحب العبارة الشهيرة "طردنا ملكاً واستبدلنا به عشرة ملوك" وكان من معسكر نجيب المؤيد لعودة الجيش لثكناته وعدم الانغماس في السياسة فدفع ثمن ذلك من عمره خمسة وعشرين عاماً سجناً مؤبداً...

****

11- في كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر" تحدثت عن أول تجربة مصرية للتصنيع الدوائي عام ١٩٤٠م بإمكانيات محدودة وخبرات مصرية كاملة فما هي منتجات هذه الشركة؟!

استناداً إلى الإعلان الذي نشرته شركة مصر للمستحضرات الطبية بصحيفة منبر الشرق (مؤسس الجريدة ومديرها ورئيس تحريرها المسؤول علي الغاياتي) في ١٥ أكتوبر ١٩٤٣م فالمنتجات التي تقوم بتحضيرها على النحو التالي:

١-الأنابيل (المحاليل) الطبية الشائعة بأنواعها: (الجليكوز- الكالسيوم- مصريود - سلفايود - سنتروبين مصر - بزموت مصر وغيرها).

٢-الحبوب والأقراص: أسبيرون مصر - حبوب الراوند الملينة - لاكتوفتالين.

٣- مستحضرات زيت السمك - الفيتامينات - المساحيق المحببة والفوارة.

٤- أدوات الزينة: كلونيا وكريم بريانتين الأميرة (دهان للشعر وكان موضة في الماضي حيث يجعل الشعر لامعاً وبراقاً وطويلاً) وبودرة الوجه.

****

12- من اللافت جدّاً أن يقدم بعض الموظفين المصريين في القرن الماضي على الإخلال بواجبهم الوظيفي وتلقي الرشوة كما أوردت من أمثلة في كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر".. هذه الانحرافات في هذا الوقت المبكر تبدو غريبة ومخزية في آن واحد وأجدني متفهمة للجانب البريطاني في ملاحظاته!

صدقيني ليست ملفتة ولا غريبة أو مخزية، بل هي من طبائع الأشياء ومثل هذه الحوادث تجري في كلّ زمان ومكان وفي كلّ المجتمعات ولا علاقة لها بتحضر الأمم أو انحطاطها.. ولكن اسمحيلي أن أطلق عليها "عقدة" لدينا أن نشعر أنّنا دون الآخرين وننتقص من أنفسنا أمام كلّ ما هو أجنبي.. إنّها دونية مرضية مؤرقة تفترض فيهم المثالية والعلو وتضعنا دوماً في قفص الاتهام.. سأعطي لك مثالاً... أليست الحوادث التي سقتها في الكتاب وتتعلق بذمم بعض الموظفين العموميين جرت عام ١٩٢٧م في مصر فهلم بنا إلى إنجلترا نفسها قلعة الحضارة ونتوقف عند عدد اللطائف المصورة رقم ٩٣٧ في ٢٣ يناير ١٩٣٣م وخبر محاكمة مهربي الأمير أحمد سيف الدين (تحدثنا عنه في كتاب حكايات من بحور التاريخ) أولهما: المستر (وليم بلبيم) أمام محكمة "هيستنجس (هيستينغز أو هَسْتِينْكَس أو **Hastings**)" وهو موظف بمستشفى الأمراض العقلية في "سكس" بإنجلترا وقد ساعد الأمير على الهرب عام ١٩٢٥ م وأقام معه بتركيا، ثمّ عاد إلى إنجلترا للمحاكمة وأفرج عنه بكفالتين ماليتين قدر كلّ منهما ٢٠ جنيهاً.

سبقت هذه المحاكمة وتحديداً عام ١٩٢٨ م محاكمة المتهم الثاني (المستر جون باستون) أمام محكمة هيستنجس أيضاً وقضت عليه المحكمة بغرامة قدرها ٢٠ جنيهاً أيضاً.. الطريف ما قاله "باستون" عن أسباب عودته من مرافقة الأمير وتخليه

عنه من كونه توقع أنّه سيعيش مع الأمير في رحلة الهروب في قصر فخم لكنّه فوجئ بمعيشة بسيطة في منزل عادي.

هل رأيت يا سيدي أنّ الإخلال بالواجب الوظيفي وتلقي الرشوة لا وطن له ولا علاقة له بدرجة تقدم المجتمعات إنما بانهيار الضمائر وغياب الوازع الأخلاقي؟! وفي ذلك الجميع سواء إلا من رحم ربي..

****

13- في كتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام" تحدثت عن موت الشيخ سيد درويش بالمخدرات في ١٥ سبتمبر ١٩٢٣م (هو التاريخ الصحيح) وقد قرأت في تقارير صحفية أنّ هذا ليس صحيحاً وأنّه مات بالسم؟

سأكتفي هنا بسرد ثلاث شهادات تعضد بعضها بعضاً:

الشهادة الأولى: شهادة الشيخ محمد يونس القاضي الشريك الفني المقرب من سيد درويش والتي أوردها محمد التابعي في مقاله "كيف مات سيد درويش" المنشور في جريدة أخبار اليوم في ٤ ديسمبر ١٩٦٥م من أنّ خليلته أو زوجته "جليلة أم ركب" حقنته بالمورفين بناء على طلبه وبعدها تعرض لتيار الهواء فترة طويلة أصيب بعدها بنزلة شعبية حادة أودت بحياته.

الشهادة الثانية: شهادة موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب عن سيد درويش والتي أوردها في حديث له مع الشاعر صلاح عبد الصبور بالعدد ١٦٥٥ في ٢٩ فبراير ١٩٦٠ م والتي تكشف إسراف الشيخ سيد درويش في تعاطي الكوكايين فيقول: "لو عاش سيد درويش لما فعل أكثر مما فعل، لأنّه لو عاش لانطمس عقله من كثرة السُطَل، فقد كان يأكل المخدرات ثلاثة أيام ويؤلف ثلاثة أيام، ولو عاش لقضى بقية حياته مسطولًا، وقد رأيت سيد درويش وهو يأكل ملعقة كوكايين حين كان كل الناس يشمون منه مجرد شمَّة.. وسيد درويش كان يأكل المخدرات لينام، وينام لينتج ويكافئ نفسه على الإنتاج بأكل المخدرات!!..."

الشهادة الثالثة: شهادة المطربة حياة صبري خليلة الشيخ سيد وقيل زوجته والتي أوردها الكاتب يوسف الشريف في كتابه "مما جرى في بر مصر" وهي الأكثر دقة وتفصيلاً وتحديداً في وجهة نظري حيث زعمت أنّه راح ضحية اجتماع كوكتيل من المخدرات (شمة تذكرة كوكايين + مورفين بكأس وسكي وضعه له خلسة منافس له على حب مطربة ناشئة " فالصو بحسب لغتها")..

التداخل الدوائي بين الكحول والمسكن الأفيوني "المورفين " "major": يؤدي إلى مضاعفة تثبيط الجهاز العصبي المركزي وخلل في التفكير والمهارات الحركية وفي الحالات الأكثر حدة يحدث انخفاض ضغط الدم وتثبيط الجهاز التنفسي والتخدر العميق والغيبوية وحتى الموت...

لا يسعنا في هذا المقام أيضاً أن نغفل روايات أخرى اتهمت الإنجليز بالتدبير لقتله مستندة لإسهاماته الوطنية العديدة.

****

14- ما هي مشروعات محمد حسن العبد والتي استحق عنها الإنعام بالبكوية عام ١٩٣٢م كما ذكرت في كتابك "هوامش على دفتر أحوال مصر"؟!

الإجابة يحملها أرشيف جريدة روز اليوسف ففي العدد ١٤١ في ٢٨ أغسطس ١٩٢٨م نجد إعلاناً نشرته الجريدة بعنوان "إذا أردت أن تشيد منزلاً أو فيلا فلا تتردد في الذهاب إلى حضرة المقاول الشهير الشيخ محمد حسن العبد.. المركز الرئيسيّ بالمنصورة تليفون رقم ٤٧٦ وعنوانه بالقاهرة شارع الحواياتي" وتعدد الجريدة أعماله الكبيرة على النحو التالي: "مشروع توليد الكهرباء في بلقاس وقنطرة هويس دكرنس وجنبيات البحر الصغير وتقدر قيمة هذه الأعمال بمبلغ مائة وعشرين ألف جنيه أما العمارات الفخمة التي شيدها لحساب بنك مصر فهي فرع الإسكندرية وفرع المنيا وفابريقة القطن الصحي بالمحلة وفابريقة الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى".. إذاً نحن في ضوء ذلك نستنتج أنّ الألقاب في العهد الملكي لم تكن تعطى اعتباطاً، بل عن جدارة واستحقاق ولكلّ قاعدة شواذ بطبيعة الحال.

لو لاحظت عزيزي القارئ فأنا أنقل لك بالكامل ما احتواه الإعلان من تعريف كامل بالشركة وتليفونها وعنوانها، كمثال على شكل الإعلان في الماضي وضوابطه. وهذا ينقلنا لعالم الإعلان في الحاضر، والذي شهد بعض الحيود عن هذه الصورة المثالية تلك حينما تنشر صحيفة الأهرام العريقة في مصر في صدر صفحاتها إعلاناً أثار الكثير من الجدل في ١ أبريل ٢٠٢٣ م عن بيع لإحدى السيارات المستعملة من فئة "جيب رانغلر ميلتري ستايل" بمواصفات خليجية موديل التسعينيات معدلة وأنّه "تم تعديل مركز الثقل لمنع الانقلاب على سرعات عالية" وأنّ "الإستبن (أي

الإطار) الاحتياطي لم ولن يلمس الأرض" ويختتم الإعلان بجملتين هما "تأمين شامل لجميع الحوادث المرورية و(حوادث القضاء والقدر) نوفمبر ٢٠٢٤"، و"إنذار صوت عالي" بدون أي ذكر لرقم التواصل أو هوية المعلن واكتفى بترك البريد الإلكتروني.. الطريف هو ما جاء في موقع "الحرة "عن اللغط الذي صاحب البريد الإلكتروني بقولها " أثار البريد الإلكتروني المرفق بالإعلان الجدل أيضاً، بسبب عبارة "**universe 25**" أو تجربة "الكون ٢٥"، حيث تم ربطها بمحاولة العلماء تحليل سلوك المجتمعات البشرية والتي بدأها عالم السلوك الحيواني الأميركي، جون بي. كالهون، في عام ١٩٦٨. و"**universe ٢٥**"، تجربة تربط بين الاكتظاظ السكاني وعلاقته بالانهيار المجتمعي، وتم إجراؤها على فئران عاشت في ازدحام كبير، لكنّها كانت تتحصل على وفرة في الطعام والغذاء، وفقاً لموقع "ذا ساينتيست"... مما جعل الأهرام توضح بأنّ نشر تلك التفسيرات جاء من باب "الخيال الواسع".

****

15- هل من المعقول أن تصل "نقطة راقصة" عام ١٨٧٨ م إلى مئتي جنيه كما ذكرت في كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر"؟

قد يكون الرقم تقديرياً من جانب الصحيفة المنقول عنها هذا الزعم، ولكن تظلّ الحقيقة قائمة أنّ راتب الراقصة هو الأعلى مقارنة بأي مهنة في مصر قديماً وحديثاً وحسبنا أن نلتمس هذه الحقيقة من الخبر الذي نشرته جريدة روز اليوسف في عددها ١٤١ في ٢٨ أغسطس ١٩٢٨ م من أن أجر الراقصة المجرية (زليكا) ملكة الرقص الشرقي في كازينو الفنتازيو هو أربعة جنيهات في الليلة الواحدة كأكبر أجر حصلت عليه راقصة في مصر (أي في الشهر ١٢٠ جنيه هذا راتب أساسي بكازينو واحد خلاف النقطة والأفراح) وتعدد الجريدة مناقب الراقصة التي رفعتها لهذه المكانة حيث أنّها رقصت في عواصم أوروبا أمام ملوكها وأمرائها.

****

16- تحدثت أنّه بالبحث المطول في خفايا أرشيف الصحافة المصرية قد عدلت عن بعض القصص الشهير الذي تتناقله الأقلام بشكل روتيني وقمت بتمحيص بعضه ونقده وأن بعض الروايات اكتشفت أنها بحاجة إلى تتمة وضربت مثالاً على ذلك بقصة "ألمز" التي كتبتها في كتاب "على هامش التاريخ والأدب" ووجدت بين أوراق الأرشيف قصة جديدة عن حقيقة التحاقها بقصر الخديوي إسماعيل وأصلها الحقيقي ووضعت ذلك في كتابك "هوامش على دفتر أحوال مصر".. فهل وجدت أمثلة أخرى لحوادث ومعلومات اكتشفت أنّها بحاجة لتعديل وتدقيق؟!

نعم كثيراً، وسأضرب مثالاً بما ذكرته في كتابي هوامش على دفتر أحوال مصر من أن عدد زيجات الإمام محمد الخضر حسين شيخ الأزهر ثلاث زيجات فقط، وذلك استناداً إلى موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين والتي جمعها وضبطها المحامي علي الرضا الحسيني -دار النوادر سوريا.. لكن بالعودة إلى أرشيف جريدة روز اليوسف في العدد ١٢٩٠ في ٢ مارس ١٩٥٣م تبيّن لي أنّ شيخ الأزهر السابق قد تزوج تسع مرات، وذلك بحسب حديثه للجريدة وأنّ له بنتين وحفيدتين في تونس.

ولأنّ الشيء بالشيء يذكر فهناك أيضاً تشكيك كبير في مسألة رفضه إلغاء المحاكم الشرعية في مصر خاصة أن القرار الخاص بالإلغاء صدر بعد استقالة الشيخ.

طبعاً منطقياً فقرار إلغاء المحاكم الشرعية في سبتمبر ١٩٥٥ م لم يكن وليد لحظته أو ارتجالياً من عبد الناصر، بل كان جزءاً من استراتيجية النظام في تنظيم

القضاء وإعادة هيكلته، وكانت هناك العديد من الدعوات لهذا الإجراء قبلها بسنوات.. أما قضية الرشوة الجنسية التي أُدينَ فيها القاضيان عبد الفتاح سيف وكيل محكمة الإسكندرية الشرعية وعبد القادر الفيل قاضي محكمة المنشية بتلقي رشوة جنسية من ثلاث سيدات بإحدى الفيلات نظير الحكم لصالحهن، فقد كانت القضية بمثابة الفرصة التي قادتها المصادفة لا أكثر ولا أقل ولم تكن ملفقة كما يدعي البعض نكاية من الصاغ صلاح سالم كما أشيع من أن الشيخ الفيل حكم لصالح مطلقته وألزمه بدفع نفقة شهرية لها.. ذلك لأنّ الشيخين أدينا بالفعل من قبل المحكمة وصدرت بحقهما أحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة والغرامة فضلاً عن شهادة المستشار محمد سعيد العشماوي بعدها بسنوات من أنّه حقّق بالقضية وأكد صحة الاتهامات بحق الشيخين.

إذاً فمعارضة الشيخ الخضر لإلغاء المحاكم الشرعية حقيقي لا غبار عليه وليس هناك ثمة دليل على العكس، وقد اشتهر عن الشيخ بين رجال الثورة كونه تقليدياً محافظاً وأنّ استبداله لتطوير الأزهر وفق رؤيتهم هو خيار مفضل لذلك كان خليفته هو الشيخ عبد الرحمن تاج (حاصل على الدكتوراه من السوربون تحدثنا عنه في كتاب تاريخ حائر بين بان وآن) والذي أعلن موافقته على خطوة عبد الناصر وظهر في صحيفة الأهرام في ٢٨ سبتمبر ١٩٥٥م وهو يقيد اسمه في سجل الزيارات لشكر الرئيس على إصدار قانون إلغاء المحاكم الشرعية وتوحيد القضاء... وأنا في هذه المسألة تحديداً على الحياد، فتوحيد القضاء مسألة لها وجاهة الطرح والإبقاء على المحاكم الشرعية مسألة لها أيضاً وجاهة في ضرورة التخصص خاصة مع تعقد قضايا الأحوال الشخصية واحتياجها اجتهادات فقهية...

المثال الثاني: الفنانة أمينة البارودي (أتينا على ذكرها في قضية "الخوذات المزيفة" في كتاب هوامش على دفتر أحوال مصر)، فلقد اكتشفت من خلال التمعن في الأرشيف الصحفيّ أنّ اسمها الحقيقيّ هو (علية فؤاد طلبة عصمت) وليس (أمينة) ويقال: إنّ "علية" هو اسمها المثبت في شهادة ميلادها (من مواليد ١٩١٥م) وإنّ والدتها في سن الرابعة أطلقت عليها اسم (أمينة محمود سامي البارودي) نسبة لجدها من أمها وذلك أنّ أم أمينة "زينب البارودي" كانت منفصلة عن زوجها فؤاد طلبة (كان مستشاراً سياسياً للسفارة المصرية في واشنطن) منذ أمد بعيد وكانت العلاقات بينهما منقطعة لدرجة أنّه كان لا يعرف ابنته.

ومن أشهر زيجاتها التي أثارت الرأي العام في حينه زواجها بعقد مدنيّ (أو هكذا قيل دون نفي منها) من نجم الأوبرا الإيطالي الشهير "أنطونيو أنالورد" وكان كاثوليكي المذهب وهي بالطبع مسلمة! ورحلت معه إلى إيطاليا عام ١٩٤٧م... فيلمها الوحيد هو "حياة فنان" مع علي فهمي والحمد لله لم يكتب له العرض (لخلاف بين المنتج والمخرج) حيث تظهر صور منه وهو يمسك بقدمها وكما يقولون في المثل "الجواب باين من عنوانه"! توفيت أمينة البارودي عام ١٩٥٩ م وحيدة وقد أنهكها المرض وقد لخص زكي طليمات حياتها الملغمة والعاصفة بقوله: "عاشت أمينة الخمسة والأربعين من حياتها مفتحة العين والحس، واعتصرت كلّ من أحاط بها، ومزجته بعصارة نفسها، كانت مدفوعة بقوى لم تستطع الخلاص منها، الرغبة في أن تلمع وأن يتحدث عنها الناس بأي لسان، ثمّ الظمأ إلى أن تستقطر كلّ متعة حتى آخر قطرة"... نسأل الله أن يهدينا جميعاً إلى سواء السبيل.

وقبل أن أنتهي من هذا السؤال لغيره، فأحب أن أقول: إنّ بصحافة زمان نماذجَ مضيئة عملت على إحياء بذرتها مجدداً في المجتمع، فاستعرضت نماذجَ شتى عبر كتبي وهنا أطرح مثالاً جديداً من الماضي يكشف عن الأسلوب العملي للطلاب في إدارة شؤون حياتهم والتوجه للعمل الحر وكسب العيش بالحلال وأنّ ما نراه في شوارعنا ليس وليد اليوم فحينما تجد طالباً جامعياً ينشئ مشروعاً لبيع السندوتشات أو المرطبات أو الحلوى أو ما شابه ليغطي نفقاته أو نفقات أسرته تشعر وأنّ هذا مستجد على مجتمعنا بحكم الظروف الاقتصادية أو أنّه خاص بفترتنا هذه. لكن الحقيقة أنّه لم يغِب عن صور الأمس وكفاح الشباب المستمر دون خجل وهو ما كان مثار إعجاب وفخر بالأمس، كما هو الآن ومن أجمل ما رأيته في الأرشيف ما جاء في العدد الأوّل من مجلة كلية الحقوق في فبراير ١٩٤٠ م وكان عميدها في ذلك الوقت حضرة صاحب العزة محمد بيك صالح من قيام الطالب بالليسانس "مصطفى ربيع" بإنشاء بوفيه بالحرم الجامعي، وقد أصبح ملتقى الطلاب في وقت الفراغ وتشيد المجلة بهذه التجربة التي تضاهي نظيراتها في أمريكا وأنّ الطالب تخطى صعاباً كثيرة مادية وأدبية وساعده رجال الجامعة على تخطيها.. وتوجز المجلة رسالتها بالقول: "فنهنئه ونتمنى له كلّ نجاح وتوفيق ولعلّ عمله يشجع الآخرين على العمل الحرّ، ففي ميدانه متسع للجميع".

****

17- برأيك ومع تطور المجتمع في مصر.. هل تطورت في المقابل مفاهيمه وأفكاره خاصة فيما يختص بقضايا الطلاق وإلى أي درجة هذا التطور؟!

أما وقد حصرت المسألة في الطلاق فالمفاهيم الخاصة بالغيرة بين الرجل والمرأة مختلطة إلى حدٍ كبيرٍ، وضبابية الأطر مع تقدم المجتمع وحداثة توجهاته وعلو كفة رجال الفن على رجال الدين على عكس الماضي الذي كان لرجل الدين الموقف الفصل في أي قضية.

لو استدعينا على سبيل المثال من أوراق نظارة الحقانية نمرة ٣١ قيد شهادات "الطلاقات" الصادرة على يد المأذون "حسين أحمد" ونتوقف بالدرس والفحص عند حادثة طلاق -نوردها على سبيل الاستئناس- في "يوم الجمعة الموافق ٨ خلت من شهر محرم سنة ١٣٠٦ هجرية (أي تقريباً ١٨٨٨ ميلادية) حضر المكرم "عوض السايس" الساكن بحارة درب الملاحفية بقسم عابدين ابن المكرم علي بن المرحوم روسي واعترف لدينا عن يد شهوده أدناه (الشهود: أحمد مصطفى البستيلي الخياط وحسن على الحلو السقا وعلى حموده الياسي) أنّه قال لزوجته (سيدة) الثيب البالغة العاقلة الرشيدة الساكنة معه بنت المكرم الحاج حسن القفاص ابن عبد المتعال قبل هذا اليوم: إن خرجت من الدار بالحنا من غير شراب في رجلك تكون طالقة طلاقاً ثلاثاً".. ولما خرجت المرأة بالحناء بدون جراب في رجلها مع علمها باليمين طبقاً لشهادتها وقع اليمين وأصبحت "طالقة من زوجها" ولها منه زينب وعلي طبقاً للورقة التاريخية (إن صحت) فمؤخر صداقها خمسون غرشاً صاغاً بالتقسيط (عشرة غروش صاغ شهرياً) وثلاثة غروش صاغ قيمة نفقة عدتها..

القضية كما نراها وقعت من مستصغر الشرر فالحناء في العرف الشعبي وفي العلم مفيدة لجفاف القدمين عند النساء خاصة مع برودة الشتاء (لاحظ أنّنا طبقاً للورقة في شهر سبتمبر أي أواخر الشتاء) كما أنّها تساعد في التخلص من الروماتيزم ومشاكل المفاصل، وتشقق القدمين وتعمل على التئام الحروق وعلاج آثارها وعلاج الفطريات والجراثيم ومن ولع النساء بالحناء تجده أيضاً صاحب كرامات! فلو مررت ذات يوم بمحازاة مسجد السيدة نفيسة من ناحية مدخل النساء ستجد مقاماً صغيراً تعلوه قبة وملطخ بالحناء للشيخ "أحمد الحناوي" وحوله زحام شديد من النسوة القادمات إليه التماساً للبركة وسعياً وراء مآرب أخرى كالإنجاب وفك السحر والزواج، ويقال إنّ صاحب المقام قدم مع السيدة نفيسة من منطقة بالقليوبية ولما مات أقيم له المقام.

الآن حصّحص الحق والمرأة تساير زمانها سواء أكانت الحنة للزينة أو بهدف الصحة أو تبركاً... على الجانب الآخر فالرجل على حق والغيرة عند الرجل شعور فطريّ، كما أنّ له من الدين سلطاناً في ذلك، فالقدمان عند جمهور الفقهاء عورة ما عدا الإمام أبا حنيفة.

ما نلاحظه من الورقة التاريخية (إن صحت) أن المرأة لم يظهر منها أنّها عاندت في الإقرار بالحق واحترام نحريرة زوجها، كما أنّ انتهاء العلاقة الزوجية كان بتحضر وتسوده المودة والتي تظهر في قبول المرأة تقسيط المؤخر وهو حق من حقوقها.

هلمّ بنا نقطع بعض الوقت بطرفة... ألم تتساءل عزيزي القارئ ما أصل تسمية الدرب بدرب "الملاحفية"؟! تصور عزيزي القارئ أن يكون مرجعي يوماً المعلم

"يوسف أبو حجاج" في مذكرات "فتوة" ١٩٢٧م ولكن ما باليد حيلة.. الواضح أنّني لست وحدي من أخذ روايته؛ فالدنيا المصورة في 5 فبراير 1930م، ذهبتْ لما ذهبَ إليه نفسه!

حيث يزعم المعلم أنّ سبب التسمية جاء نسبة لبائع كتاكيت كان يتجول بباب الشعرية وفي هذه الحارة عند باب "الخوخة" تلاعبت به بعض الفتيات مستغلات سذاجته فاحتلن عليه وأخذنَ منه بعض الكتاكيت بحجة تفريج الأهل وظلّ الرجل ينتظرهن حتى جاء المغرب وبدأت خيوط الليل تكسو الوجود بظلمة ستارتها فراح الرجل يصرخ ويصيح قائلاً: "الملاح.. الملاح.. هاتولي الملاح ياللي عندكم الملاح" وكان يقصد بالملاح "كتاكيته" ولما كان لفظ "الملاح" مترسخاً في الوجدان الشعبيّ بإطلاقه على "الفتيات الحسان" فقد ظنّ أهل الحيّ أنّ البائع يعاكس فتياتهم فخرجوا له وأوسعوه ضرباً وركلاً وهو يصرخ ويصيح: "ضرب الملاح فيه" ومن هنا جاءت التسمية..

ما الذي تغير مع الزمن؟!

في مجلة الاثنين والدنيا العدد ٦٨٧ في ١١ أغسطس ١٩٤٧ م روت الفنانة بهيجة حافظ تحت عنوان "كن... ولا تكن" إنّ سيدة طلقت من زوجها "لسبب تافه بسيط" فقد كانت جالسة مع ضيف من ضيوف الأسرة في الصالون فأرادت أن تشعل سيجارة فتقدم الشاب في أدب ليشعلها لها، ولكن سقطت الولاعة من يده فجأة فانحنى كلّ منهما ليتناولها من الأرض وفي هذه اللحظة دخل الزوج، فوجدهما في مشهد "أثار الريبة في نفسه وترتب عليه الطلاق".

تصور معي زوجة مدخنة تجلس بمفردها وسط رجال أغراب... والزوج عليه أن يلتمس الأعذار إن وجدها ملاصقة لشخص غريب يبحثان عن الولاعة معاً!

طبعاً هذا يعكس أنّ نظرة المرأة العصرية لأحقية الرجل في الغيرة قد أصابها تشوه كبير مع تحرر المرأة وارتباطها بثقافة الغرب وأصبح الرجل متهماً إن مارس حقوقه في عدم قبول ما يراه خطأ جليّاً...

تنتقل بهيجة في تحليلها لفلسفة الغرب الرديئة الأقرب للسفسطة والإغراق في متاهات إلغاء قوامة الرجل وسلطانه وفضله على زوجته واستبدالها بقوامة المرأة على نفسها واستقلالها وتحويل العلاقة الزوجية القائمة على التراحم واحترام الأدوار بين الزوجين إلى ساحة حامية للقتال لجني المكتسبات فتنصح قائلة: "لا تفرض نفسك حارساً عليّ فما أنت أحذق من دهائي ولا أنت تستطيع أن تجبرني على حفظ عهدك وشرفك إذا لم تجعلني أنا الرقيب على نفسي... شرف المرأة في ذمة قلبها وقلبها في ذمة رجلها.. فإن كان عادلاً معتدلاً... يعطي كما يأخذ... ضمن أنّ قلبها في جيبه وشرفها في داخل هذا القلب".

ولمن لا يعرف السيدة بهيجة حافظ فبحسب مجلة كلّ شيء والعالم في عددها ١٤١ في ٢٣ يوليو ١٩٢٨ م فالسيدة بهيجة حافظ هي كريمة المرحوم إسماعيل حافظ باشا وشقيقة السيدة خديجة حافظ عقيلة النائب المحترم الأستاذ جعفر بيك فخري وقد أظهرت ميلاً كبيراً نحو الموسيقى، فالتحقت بمعهد راهبات "المير دي ديو" بالإسكندرية لتتلقى علومها الفرنسية، وتنتظم في سلك فرقته الموسيقية بتشجيع من والدها الذي كان يعمل ناظر الخاصة السلطانية في عهد السلطان حسين كامل ويقال: إنّ ابن خالتها إسماعيل باشا صدقي رئيس الوزراء.. كان زواجها الأوّل من

أمير إيراني عام ١٩٢٥م ثمّ حدث الانفصال وعادت للإسكندرية.. من أشهر أفلامها فيلم "زينب" وفيلم "ليلى بنت الصحراء" والذي منع من العرض في أعقاب زواج شاه إيران من الأميرة فوزية خشية الإساءة للعلاقات بين البلدين... توفيت في ١٣ سبتمبر ١٩٨٣ م وحيدة وكان قد نسيها الجميع...

****

18- في ضوء أرشيف الصحافة المصرية ما مدى صحة العبارة الشهيرة "محدش بيبات جعان في مصر".

في العموم: العبارة ليست صادقة تماماً وفي الخصوص أيضاً.. العبارة ليس لها ما يدلل عليها سوى نوستالجيا الماضي والشعور بأنّه كان أكثر مثالية.

لذا وحتى نكشف الستار عن زيف مثالية الماضي فلنطالع معاً هذه القصة... حكاية سلطانة تركية في مصر.. امرأة رفعتها الأقدار لمنزلة سامية لا تبارى.. مال وجاه وسلطان.. لكنّها الأيام حين تتبدل والخطوب حين تقسو والأحوال حين تتأزم فإذا بسلطانة الأمس تعيش ضنكاً وضياعاً وبؤساً وشقاءً، وتغدو نهايتها مأساوية.. حكايتنا عن السلطانة سنية هانم زوجة السلطان العثماني محمد السادس ونبدأ قصتها من مشارف النهاية ففي مجلة العروسة في عددها ٩٤ في ١٧ نوفمبر ١٩٢٦م ومن خبر محاولة انتحار سلطانة تركيا السابقة الأميرة سنية على زكريا نقف على أعتاب قصتها.. ولدت سنية هانم في سينوب عام ١٨٨٩ م وهي شركسية ووالدها زكريا بيك من عائلة معروفة في قفقاسيا (القوقاز)، وبحسب المجلة فقد عرفها السلطان وحيد الدين إذ رآها تتنزه مع خالها في بستان قصره فأعرب له عن رغبته في الاقتران بها وكانت زوجته الثانية، ولكنّها افترقت عنه بعد خمس عشرة سنة.

وهنا تقع المجلة في خطأ في رواية اللقاء الأوّل بين سنية والسلطان، فبحسب لقاء الأستاذ "علي أحمد هيكل بيك المحامي" معها والذي نشرته مجلة "كل شيء والعالم" في عددها ١٠٦ في ٢١ نوفمبر ١٩٢٧ حيث وصفت سنية لقاءها الأول بالسلطان بالغريب

فقد كانت في السابعة من عمرها حينما رافقت أمها التي كانت صديقة لوالدة السلطان لقصر "ضولمة باغجة" وهو قصر التتويج وهناك وقع نظر السلطان عليها فتعهدها بالرعاية والتربية وبلغ اهتمامه بها أنّه من كان يخلع أسنان طفولتها اللبنية بنفسه!! ولما شبت عن الطوق وبلغت الثالثة عشرة من عمرها تزوجها في ٢١ ذي الحجة ١٣٢٤ هجرية (أي ١٩٠٧م) وأصبحت من وقتها "حرمتلو عصمتلو سنية خاتم انشراح أفندم"...

كان السبب في الانفصال بحسب روايتها هو جمود أفكار السلطان واستبداده بينما كانت تعشق الحرية ومبادئها وهو ما خشي منه السلطان أن يتسرب لسكان قصره.. فأقامت منفردة بين قصرين: في الصيف قصر "جنكل كدى" والشتاء قصر "ضولمة باغجة".

وبحسب مجلة العروسة العدد المشار له آنفاً، فقد رتّب لها السلطان بعد الانفصال مرتباً شهرياً بقيت تتناوله حتى "اعتزاله" ورحيله إلى الأستانة ومعه أخوها "زكي بيك" ثمّ اعتلت صحتها فسافرت إلى إيطاليا ومنها جاءت إلى مصر لتقيم بها طويلاً ولكن السلطان مات أثناء ذلك وقطع عنها الراتب ونفدَ ما معها.

أعتقد أنّ المجلة قد جانبها الصواب أيضاً في هذه المسألة، فانقطاع السلطان عن النفقة ربما بدأ في نهايات حياته، فمأساته كانت أعظم من مأساة زوجته بكثير...

كان السلطان محمد السادس والمعروف بالسلطان "وحيد الدين" هو السلطان ال٣٦ لدولة الخلافة العثمانية.. تسلّم الحكم والبلاد في أتون حرب عالمية أرهقت بلاده ولم تجنِ منها شيئاً سوى هزائم مدوّية، وضياع فلسطين وسورية واحتلال أجزاء

من الأناضول، وأصبح واضحاً أنّ خلاص أوروبا من "رجل أوروبا المريض" قد أوشك... في مؤتمر الصلح بباريس في ١٨ يناير ١٩١٩م تكشّفت للسلطان المطامعُ اليونانيةُ في السيطرة على "إزمير" وعلى الباب العالي عدم المقاومة وهو الإذلال الثقيل عليه بحكم العداء التقليديّ بين البلدين..

تفتّق ذهن السلطان ورئيس وزرائه "فريد باشا" أنّ بإمكانهما اصطناع حالة من المقاومة الوطنية في شرق الأناضول؛ للتمرد بشكلٍ غير مباشرٍ على الشروط المجحفة التي فرضها الحلفاء على الدولة العثمانية في مؤتمر الصلح، وأنّ خير من يوكل له المهمة: "مصطفى كمال أتاتورك" المساعد الفخري للسلطان، وبالفعل عيّنه السلطان مفتشاً عاماً على الجيوش، وله سلطة إصدار الأوامر بالأناضول كلّها.. لكن ثقة السلطان لم تكن في محلها، فسرعان ما قلب له أتاتورك ظهر المجن، فبعد نزول الجيش اليوناني بإزمير بيومين ظهر أتاتورك بها معلناً تمرده على السلطان ومتسلحاً بالتفاف الحركة القومية حوله، وتمخّضت الحركة عن إنشاء "مجلس الأمة التركي"... وبدأت المواجهة بين الطرفين وهنا تبدو الصورة ضبابية بين المؤرخين حول دوافع أتاتورك في هذا الانقلاب على السلطان بين من يتهمه بالتواطؤ مع إنجلترا في الخفاء ضد السلطان وبين من يراه قائداً لحركة وطنية إصلاحية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه مع انبطاح السلطان لشروط الحلفاء المهينة.

كانت القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقولون هي ظهور بنود معاهدة "سيفر" للعلن والتي قلّصت من صلاحيات الدولة العثمانية وسيادتها بشكل غير مسبوق وأجبرت الدولة العثمانية على توقيعها في ١٠ أغسطس ١٩٢٠ م، حيث سارت المعاهدة في مبادئها على خطى "سايكس بيكو" لتتقاسم أملاك الدولة العثمانية بين بريطانيا

وفرنسا وإيطاليا، علاوة على اليونان، وقد اشتملت المعاهدة على منح الأكراد حكماً ذاتياً، وكذلك اليهود في فلسطين؛ فثار الوطنيون الأتراك ضدها واتهموا السلطان بالخيانة، ولم يكن أمام السلطان محمد السادس سوى الفرار بحياته بضمانات بريطانية، وذلك تزامناً مع إعلان الحلفاء في مؤتمر لوزان في نوفمبر ١٩٢٢ م عن اعترافهم بمجلس الأمة التركي ممثلاً شرعياً للشعب التركي، ومعه أدرك السلطان أنّ الخلافة العثمانية أصبحت في مهب الريح وقاب قوسين أو أدنى من الزوال.

غادر السلطان إسطنبول في ١٧ نوفمبر ١٩٢٢م من قصر يلدز على متن السفينة الإنجليزية "مالايا" إلى منفاه الاختياري بمالطا، ومنها إلى مكة بدعوة من الشريف حسين الذي كان قد شق عصا الطاعة للباب العالي في هذه الآونة، ثمّ الطائف، ثمّ بعدها غادر الحجاز كلّه إلى إيطاليا، ربما بعد أن يأس أن يهيئ له "الحجاز" أسباباً للعودة مرة أخرى لمقعد الخلافة وهو ما لم يكن ممكناً مع بسط بريطانيا نفوذها هناك...

اشتدّت الضائقة المالية بالسلطان وحيد الدين ومع إلغاء الخلافة العثمانية (والحمد لله على فضله) عام ١٩٢٤م، ولم شمل عائلته إلى جواره تضاعفت ديونه بشكلٍ كبيرٍ لدرجة أنّه حين وفاته في ١٦ مايو ١٩٢٦م رفضت السلطات الإيطالية دفنه لحين سداد ديونه البالغة ٢٠٠ ألف فرنك لأصحاب المتاجر، مما اضطر ابنته "صبيحة" لبيع مجوهراتها وفاءً لدينه، وليستقر جثمانه بمسجد السليمانية بدمشق في العام نفسه بناءً على وصيته.

ومن السلطان السابق نعود أدراجنا مرة أخرى لسنية السلطانة السابقة والتي ضاقت بها السبل في مصر، وحاولت أن تشتغل بالتصوير لتعيش، ولكنّها لم توفق في عملها، واشتدّ بها الضنك ولم تجد مرتزقاً، وكانت تطاردها الهواجس أنّ هناك جواسيسَ يتتبعونها وينقمون عليها اشتغالها بالسياسة وقت سلطنة زوجها ويبغون إيذاءَها، فلجأت إلى إحدى الكنائس (أين الجمعيات الشرعية الإسلامية من حالها وحال غيرها من المحتاجين؟!) تطلب مأوى تقيم به بقية أيامها، ولكن رئيسة الكنيسة أرسلتها إلى ملجأ الغرباء، فأقامت به تقاسي مرارة اليأس والأحزان حتى تملكها القنوط وفي سبتمبر ١٩٢٦ م خرجت إلى الجزيرة الصغيرة وألقت بنفسها في النيل مؤثرة الموت على الحياة، لكن بوليس الدورية وأحد أصحاب المراكب نجحا في إنقاذها وأعيدت إلى الملجأ.

يبدو أنّ مأساة السيدة وتناولها بالصحف قد كان بمثابة الحجر الذي حرك المياه الراكدة فسعى محمود صدقي باشا محافظ العاصمة في صرف مرتب لها من وزارة الأوقاف، فتسنّى لها بعد خروجها من ملجأ الغرباء أن تستأجر منزلاً بسيطاً بحلوان شاكرة له صنيعه "لأنه صان شرفها".

أما عن نهاية السلطانة فتزعم الروايات أنّها نجحت في الانتحار أخيراً بإلقاء نفسها في مياه النيل في ١٠ يونيو ١٩٣٠ م، ونقل جثمانها بعد سنوات لتدفن في مقبرة أمير سلطان في مدينة بورصة التركية...

كما رأينا معاً.. ضيفة بمصر (في الزمن الجميل!) تعاني الضيق ومرارة الحاجة حتى زهدت الحياة وآثرت عليها الموت.. ولولا الصحافة وشهامة بعض رجال الإحسان لضاعت وسط الضائعين.. هل ترى بين الأمس واليوم من فارق؟!

الحقيقة أنّ الأمثلة كثيرة، لكن ما دفعني لانتخاب هذا المثال للرد على سؤال القارئ العزيز هو حجم التلاعب والزيف الذي لاحظته لدى بعض الكتاب الذين اختصوا أنفسهم بالكتابة عن أمراء وأميرات الدولة العثمانية، مستغلين ضعف الكتابات المتاحة بمصر عنهم ولا أظنهم يبذلون قسطاً ولو بسيطاً من جهدٍ في البحث عن المادة التاريخية في المواقع التركية، والكتب التركية المترجمة، بل يلجؤون في غالب أمرهم إلى فبركة القصص والروايات العثمانية ومنها قصة الأميرة سنية، لذا أحببت أن أضرب عصفورين بحجر، فأشرت لهذه القصة ومنها دلفت إلى قيمة هامة غابت عنا بين غيوم البحث عن الشهرة وجني الإعجابات والمشاهدات على السوشيال الميديا، وهي أمانة البحث والتحقق قدر الإمكان....

****

19- وأنت تبحث في أرشيف الصحافة المصرية هل استولت عليك الحيرة وأنت تقرأ عن مواقف بعض الشخصيات التاريخية؟!

مسألة الحيرة لم تفارقني مع شخصيات كثر خاصة تناقضات البشر في أحوالهم المختلفة، وقد وضعت قاعدة لإزالة هذه الحيرة بأن أضع أمامي معطيات الأحداث ومسارات الوقائع نصب عيني حينما أناقش قرارات الشخصيات واختياراتهم، ووجدت مع ذلك راحة شديدة، لكن ومع ذلك تجد اندهاشاً لمواقف بعض الشخصيات تورثك حيرة لا تخرج منها أبداً، فأسباب التناقض ليست واضحة ولا يمكن ترجمتها في سياق معطيات الأحداث فمثلاً: أحمد بيك الحسيني المحامي الشهير، والذي أتيت على ذكره في قضية الخازندار في كتاب هوامش على دفتر أحوال مصر كأحد المتهمين في القضية وقد تقاضى ٣٠٠٠ جنيه اعتبرت أنّها مأخوذة من مال مسروق، وأنّه كان يعلم ولهذا ارتأت النيابة اتهام الحسيني بيك بالاشتراك في التبديد وهنا تدخل مجموعة من ذوي النفوذ واسترضوا رئيس النيابة، فاكتفى برد الحسيني للمبلغ ليضاف لمال التركة، فدفع ثلثيه وتعهد بسداد الباقي ويعتبر الهلباوي في مذكراته أنّ انتصاره في هذه القضية هو عدم اتهام الحسيني فيها بأنّه أتى "بعمل غير لائق"... تصور وأنا أبحث عن مسألة دينية في الفقه الشافعي أنّ أحمد بيك الحسيني هو أوّل من تكفّل بطباعة كتاب (الأم) للإمام الشافعي في سبعة أجزاء بين عاميّ ١٣٢١ هجرية (١٩٠٣م) وحتى ١٣٢٥ هجرية (١٩٠٧م) بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية، وقد أشادت الطبعات بمجهوداته في جمع هذا الإرث الفقهيّ الكبير حيث "صرف همته في جمع ما تفرق من أجزائها في الأقطار، وبذل في تحصيلها نفيس

النضار". ويقال إنّه باع في سبيل تحقيق هذا الغرض "عزبة" كان يملكها وقد حملت الأجزاء في صدر صفحاتها تنبيهاً "لايجوز لأحد أن يطبع كتاب الأم من هذه النسخة وكلّ من طبعها يكون مُكلفاً بإبراز أصل قديم يثبت أنّه طُبع منه، وإلا يكون مسؤولاً عن التعويض قانوناً، أحمد الحسيني"..

وضعت الصفحة الأولى من هذا الكتاب أمامي في يدٍ، وأنا أقول يا له من فضل كبير وفي يدي الأخرى أطالع تعقيب الهلباوي في مذكراته على ضعف موقف أحمد الحسيني في القضية فتتملكني الحيرة.. أليس الرجل هو الرجل ذاته؟!

بحسب هوامش كتاب (تأنيب الخطيب على ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب) للإمام الشيخ محمد زاهد بن حسن الكوثري –طبعة المكتبة الأزهرية للتراث، فقد جاءت وفاة المتهمين في قضية الخازندار: الشيخ عبد الرحمن البحراوي ١٣٢٢ هجرية وأحمد بيك الحسيني ١٣٣٢ هجرية، وقد ورد بها أنّ الحسيني بيك تقاضى ٤٠٠٠ جنيه نظير فتواه لممتاز بيك، والصحيح ما أوردناه مستندين لمذكرات الهلباوي...

ولأنّ الشيء بالشيء يذكر فمن طرائف هذه المحكمة أنّهم لما أتوا بالشيخ البحراوي وطلبوا منه أن يحلف على صحة أقواله، فقال: "والله العظيم" برفع هاء لفظ الجلالة! فضحك الهلباوي، ذلك أنّ واو القسم تجر...

كان كتاب "الأم" هو الكتاب المتمم في رحلة الشافعي التي حطت رحالها بمحطتها الأخيرة في مصر والجامع لما عدل.. الطريف أنّه وبعد سنوات من تحقيق الكتاب كما أسلفنا دارت معركة حول نسبته للشافعي بطلها هو الدكتور زكي مبارك والذي سار على خطى المستشرقين، فوقع فيما أنكره على طه حسين في الماضي.. نشر الدكتور

زكي مبارك آراءَه على صحيفة البلاغ عام ١٩٣٤م، ودارت ملاحاة بينه وبين العلماء، وقد جمع مقالاته بكتاب صغير تحت عنوان: "إصلاح أشنع خطأ في تاريخ التشريع الاسلامي كتاب الأم لم يؤلفه الشافعي، وإنما ألفه البويطي، وتصرّف فيه الربيع بن سليمان الكاتب.. بحث وتحقيق الدكتور زكي مبارك" وأهداه إلى أستاذه المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون.

والبويطي الذي يشير الدكتور زكي مبارك إلى نسبة الكتاب إليه هو "أبو يعقوب يوسف بن يحي القرشي البويطي" نسبة إلى (بويط) قرية من أعمال بني سويف في مصر الوسطى، وكان صاحب الإمام الشافعي وخليفته من بعده.. كان مجاهداً صلباً تحمل مشقة العذاب حتى مات في فتنة خلق القرآن.. قال الربيع بن سليمان وهو صاحب الشافعي وراوي كتبه "كان البويطي أبداً يحرك شفتيه بذكر الله، وما أبصرت أحداً أنزع بحجة من كتاب الله من البويطي، ولقد رأيته على بغل، وفي عنقه غل، وفي رجليه قيد، وبين الغلّ والقيد سلسلة حديد، وهو يقول: «إنما خَلق اللهُ الخلقَ بـ«كُنْ»، فإذا كانت مخلوقة، فكأنّ مخلوقاً خُلق بمخلوق، ولئن أُدخلت عليه لأصدقنه (يعني الخليفة الواثق) ولأموتن في حديدي هذا، حتى يأتي قوم يعلمون أنّه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم.!"..

تصدى لدعوى الدكتور زكي عددٌ من العلماء من بينهم الشيخ محمد أبي زهرة في كتابه (الشافعي) وكذلك المحقق الكبير أحمد شاكر في مقدمة تحقيقه للرسالة..

لقد كانت مصادفة غريبة تلك التي جمعت الدكتور "زكي مبارك" بالشافعي لدي، ولكنّها مفيدة في إيصال رسالة لا أظنها تخص الدكتور "زكي مبارك" الآن وقد رحل

عن ديارنا رحمه الله، ولكنها تعني الكثير من الناس في مواقع ومناصب مختلفة وهي أنّ سنة الله في الأرض الاختلاف وهو بوابة رخاء إن سادته المودة وتنزّه عن امتطاء جواد الانتصار للذات وأنّ أي قضية علمية في الكون تبقى جدلية بمعطياتها وأبعادها الذاتية دون أن تمس شخوص ناظريها مؤيداً ومعارضاً. وكما أنّ من حقك أن تبدي رأيك من حقي أنا الآخر أن أطرح رأيي دون انتقاص من علمي وثقافتي وما أثرى العلم إلا الخلاف المعرفي وما أسقطه في بلادنا إلا جموح الذات المفرط بالأنا.. والإمام الشافعي خير مثال طيب في الاختلاف مع ترك مساحة آمنة للعودة وكنت أتمنى لو تأثر الدكتور بطريقة الإمام الشافعي في الاختلاف، ففي سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي: قال يونس الصدفي وكان تلميذ الشافعي: "ما رأيتُ أعقلَ من الشافعيِّ، ناظرتُه يومًا في مسألةٍ، ثمّ افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثمّ قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة!" (بالمناسبة أتمنى من أصحاب بوستات الفيس بوك أن يتحروا الصواب فيما ينقلونه فهذه حقيقة الحوار بين الرجلين ولا صحة للقول المنسوب للشافعي " يا يونس، تجمعنا مئاتُ المسائل وتُفرِّقنا مسألةٌ! يا يونس، لا تحاول الانتصار في كلّ الاختلافات، فأحيانًا كسب القلوب أَولى من كسب المواقف، يا يونس، لا تهدم الجسور التي بنيتَها وعبرتها، فربما تحتاجها للعودة يومًا ما، اكره الخطأ دائمًا، ولا تكره المُخطئ، يا يونس، انتقد القول لكن احترم القائل؛ فإنّ مهمتنا أن نقضي على المرض، لا على المريض" فهي موضوعة).. لقد ترك الإمام الشافعي إرثاً علمياً فقهياً بقي منهلاً لمن بعده ممن حفظوا سيرته ولم يقتصر هذا على الطلبة الدينيين، بل تعداه إلى الساسة ومن أشهرهم القائد صلاح الدين الأيوبي الذي اعتنق مذهبه وكان يتبرك به للحد أنّه

يزور قبره هو وعمه أسد الدين شيركوه وهما ما زالا في ظلّ العهد الفاطمي الشيعيّ، وحينما ضرب عنق الوزير شاور السعدي على غير موافقة أسد الدين كان ذلك قرب قبر الشافعي، والواضح أنّه ورث فقهه، لكن لم يتبع سنته في الحلم والروية! نأتي في المقابل للدكتور زكي مبارك بلغته البلاغية الحسنة وبراعته السردية، لم يحظَ بالمكانة التي يستحقها، فلا تلامذة أخذوا منهاجه وساروا في أثره، ولا أقلام تردد صيحاته وتحيي قضاياه، بل وخسر حتى معاصريه ولا أجد ما هو أشد على النفس من أن يخشى المرء أن يودع الحياة ولا يجد مراثي له، وحسبي أن أورد ما قاله في كتابه وحي بغداد: (وأخشى ألا أظفر بكلمة رثاء يوم يشيِّعُني الناس إلى قبري، فذاكرة بني آدم ضعيفة جدًّا وهم لا يذكرون إلا من يؤذيهم، أما الذي يخدمهم ويشقى في سبيلهم فلا يذكره أحد منهم بخير) وقال أيضاً (... لن يرثيني أحد يوم أموت فيجب أن أعيش لأغيظ أعدائي)...

****

20- أحياناً تستخدم في كتاباتك استدلالات وترفقها بعبارة (على سبيل الاستئناس) ما المقصود بذلك؟!

أقصد في هذه الحالة أنّها أوراق تاريخية لا ترتقي أن تكون أدلة مباشرة يستند إليها في التقرير أو المفاضلة أو التيقن، لكن يستأنس بطرافة محتواها كمكمل للصورة بوجه عام طالما تقع تحت قاعدة تاريخية مثبتة بأدلة تامة الأركان من خارجها.

والسبب أنّ كثيراً من هذه الأوراق عبارة عن قصاصات متناثرات مبعثرة على الإنترنت لا يربطها رابط وهي تخص في معظمها دواوين الحكومة المصرية أو مذكرات شخصية أو خطابات، وكثيراً ما كنت أبادر لشراء بعضها فيكون رد البائع بالاعتذار أنّها حجزت أو بيعت أو أنّها ليست في حوزته، وغالباً ما يكون هذا الرد الأخير وفي كلّ الأحوال تبقى غير مثبتة بذاتها... كما يتناقل الكثير من الهواة على الصفحات الإلكترونية بعضاً من هذه الأوراق.. ولما كانت هذه الأوراق التاريخية والمفترض أنّ كثيراً منها وثائق، فطالما ليست في ضمانة جهات بحثية حكومية أو غير حكومية تتعهدها بالجمع والعناية والفحص والفصل بين الزائف منها وغير الزائف، ومن ثمّ العرض والإتاحة للباحثين أو حتى البيع عبرها، فلا يمكن الوثوق والارتكان لصحتها بشكلٍ جازمٍ وتامٍ، لتتصدر تقرير حادثة تاريخية أو نفيها أو الفصل في مسألة تاريخية وعلى هذا تدرج من قبيل الأثر الذي يروى على سبيل الاستئناس وهذه قاعدة خاصة بي في فرز الأوراق التي تقع تحت يدي ولا ألزم بها أحداً.

****

21- تحدثت في كتاب "على مقهى الأربعين" عن نماذجَ من الأطباء تتقاضى أموالاً من بعض الشركات مقابل كتابة أصناف بعينها مثل المكملات والفيتامينات فلِمَ لم تتصدَّ لهذه الظاهرة، فتمنع وتحذر وتدعو غيرك لسلوك نفس السبيل؟ اسمحلي هذا تخاذل منك؟

هذه ليست مهمتي وببساطة يستطيع أي طبيب في عالمنا العربي تسفيه رأي أي صيدلانيّ مهما كانت كفاءته وكفايته تحت دعاوي عدة منها: وجود دراسات تدعم الاستخدام.. حاجة المريض والتي لا يعلمها إلا الله...

لذا فالجهات الحكومية والمجتمعية المعنية هي المنوط بها إدارة العملية الطبية بشكل ممنهج وسليم بدءاً من تطبيق الوصفة الإلكترونية، لتحتوي على كلّ الأدوية التي تكتب للمريض وبالاسم العلمي، وليس التجاري وتحديد التشخيص بكلّ دقة عبر آلية (**Medical coding**) (التكويد الطبيّ) والتفتيش المستمر على العيادات الطبية وفحص الملفات الطبية الخاصة بكلّ مريض، والتأكد من أنّ لكلّ مريض رقم ملف طبي خاص (**File number**) وتفعيل ال (**Peer review**) مراجعة الأقران أو مراجعة النظراء للاطمئنان إلى تناسب الأدوية التي تكتب فعلياً مع التشخيصات المسجلة طبقاً ل **Guidelines** (القواعد والمبادىء التوجيهية) المعتمدة دولياً، ووجود تشريعات تعاقب شركات الأدوية التي تنتهج الرشوة كوسيلة لجعل الطبيب يكتب أصنافها. ووجود آلية للمريض للشكوى من أصناف يرتاب أنّ الطبيب يسرف في وصفها وآلية في المقابل تدرج هذه المسألة ضمن اليقظة الدوائية (**Pharmacovigilance**) التي توجد مراكز مسؤولة عنها... هذه هي

الوسائل الحديثة في وجهة نظري بعيداً عن الارتجال والمشاحنات التي تفسد الود والتقدير المفترض أن يسود أعضاء العملية الطبية.

****

22- لماذا تصف بعض كتاباتك التاريخية بالدردشة مع أنّها ترتقي في أجزاء كثيرة منها إلى الكتابة الأكاديمية الرصينة؟! وما هي أهدافك من الكتابة عبر أرشيف الصحافة المصرية؟!

بداية أشكرك على رأيك وأرد على سؤالك بأنّي أتوجه بكتاباتي للأشخاص العاديين في المقام الأول لأنّ وجهتي دروس التاريخ واستلهام فوائده لا الدخول في خلافات ونزاعات بالتفاصيل ودقائق الأمور وأجد فيما كتبته المجلة الشهرية (لصاحبها إسكندر مكاريوس صاحب اللطائف المصورة والروايات المصورة والعروسة ومجلة الأولاد... ينشئها نخبة من الأدباء برئاسة الأستاذ نجيب شاهين) تحت عنوان "كلمة لقراء المجلة" أوجز وأدق وأعمق بيان، وذلك في الجزء الأوّل في ١ فبراير ١٩٢٥ م إذ تقول: "إن كان القراء ينتظرون منا مقدمة مثل مقدمة ابن خلدون طولاً -غفر الله لنا وله - فقد أخطؤوا في انتظارهم وأساؤوا الظن فينا.. وفي الحديث: إنّ الله يكره الانبعاق في الكلام (أي التوسع فيه والتكثر منه)، فرحم الله امرأً أوجز في كلامه... وأنّ المجلة مرادة للعامة أولاً وللخاصة ثانياً، وغايتها مزدوجة وهي إيجابية مع الأولين وسلبية مع الآخرين. أي أنّنا نعني بأن يرضى العامة عنها وبألا ينكرها الخاصة.. لأنّ الخاصة في كلّ بلد متعنتون وإرضاء المتعنت صعب.. وتعنتهم هذا ناشئ عن رسوخهم في العلم وعلو كعبهم في الفن، ونحن إنما نلم بهما إلماماً.. فإذا أنكروا مجلتنا فإنّنا نحيلهم على مجلة علمية، فهناك يجدون ما يروى أوامهم (أي عطشهم).." وهذا التعليل الأخير الخاص بالخاصة هو بيت القصيد بالنسبة لي، فالمختصون كلٌّ منهم يدّعي أنّه صاحب مدرسة أو ينتمي لمدرسة، ولكلّ واحد منهم نظرية ورأي ومنهاج صواب أو خطأ يدافع عنه بشراسة، وكأنّه امتلك ناصية

التاريخ وحده وخلفه فرقة من تلاميذه يؤيدونه محبة ونفاقاً وبين هذه الفرق صراعات ومعارك في تفاصيل تضيع الوقت سدى وترهق البدن والفكر معاً.. لازلت أتذكر أستاذة بارزة لها كتاب أثري هام كان طلبتها يتغنون بعظمته وثرائه وانفراده، وما إن رحلت الأستاذة عن دنيانا حتى انقلب التلاميذ على الكتاب، وأنّه عظيم الأخطاء ومن وضع بعض طلابها وأنّها لم تراجعه.

أما هدفي أنا:

"أنني أكتب تاريخاً حان وقته.. تاريخ قاعدة الهرم لا سقفه.. حياة العوام لا ذاكرة الخاصة.. تاريخ البشر لا منجزات الحجر.. انقل معيشة الناس لا فخفخة حكامهم وموائد منافقيهم... أنفذ إلى حيث الشقوق والدروب من أسفل لا من شرفات القصور من أعلى.. أبغي بين الثنايا دروسَ وعبرَ من رحلوا.. وحسبي بعملي أن أنقل أحلامَ وأوهامَ من سكنوا القبور ولم تشرئب أعناقهم يوماً ليقولوا لقد مررنا من هنا ولم يحفل بنا أحد وإلى هؤلاء أهدي كلّ كتبي"...

****

23- الحقيقة أنّني أندهش من أنّ إقدام شخص على مدح محافظ الإسكندرية متمنياً من الملك بقاءَه تعتبره ظاهرة في كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر" ولا أظنه إلا استثناءً؟!

سأزيدك من الشعر بيتاً إذاً... وتعالَ نتصفح معاً في كتاب "مديرية المنوفية أمس واليوم أو عهد سعادة الحقوقي الضليع أحمد حلمي باشا مديرها الجليل.. كلمات حق نشرت بجريدة الرائد العثماني بقلم صاحبها محمد توفيق الأزهري.. طبعت على نفقة الرائد.. طبع بالمطبعة الأهلية الكبرى بطنطا ١٨٩٠م" ونتوقف عند أبيات التقريظ في مقدمة الكتاب في "سعادة الحقوقي الجليل أحمد حلمي باشا مدير المنوفية الحازم" تقول: "يا من يجرد من بصيرته.. تحت الحوادث صارم العزم

رعت العدو فما مثلت له.. إلا تفزع منك في الحلم

أضحى لك التدبير مطرداً.. مثل اضطراد الفعل للاسم

رفع الحسود إليك ناظره.. فرآك مطلعاً مع النجم"

بصراحة لا أعلم إذا كانت هذه الأبيات فأل حسن أم فأل شؤم على الرجل؟ وإن كنت أميل للأولى، فقد نقل أحمد حلمي باشا من مديرية المنوفية ليشغل منصب ناظر المالية بدلاً من يوسف سابا باشا الذي تولى هذا المنصب في بدايات وزارة محمد سعيد باشا الأولى التي تشكلت في ٢٣ فبراير ١٩١٠ م، ثمّ نقل بعدها لوزارة المعارف في تعديلات ٢٠ نوفمبر ١٩١٣م بنفس الوزارة وخلفه على المالية يوسف ذو الفقار باشا كما تطرقنا في سؤال آخر.

24- ماهو رقم عدد مجلة "الاثنين والدنيا" وسنته والذي استندت له في ردود أفعال الفنانات (تحية كاريوكا وماري كويني وفاتن حمامة وفاطمة رشدي) الطريفة تجاه الخيانة الزوجية؟!

بداية أعتذر عن هذا.. وهو سقوط وليس إغفالاً لرقم العدد وسنته سهواً مني أثناء إعداد الكتاب والعدد هو ٧٧٢ في ٢٨ مارس ١٩٤٩ م، وحريّ بنا وحتى يؤتى إعادة التناول ثماره، فأجدها فرصة لطرح وجهة نظر "راقية إبراهيم" تجاه الخيانة الزوجية وإحقاقاً.. فقد كان الرأي الأكثر واقعية وتعقلاً ورزانة فتقول: "إذا كانت الزوجة تحبّ زوجها وتريد أن تبقى معه، فيجب عليها أن تتحمل هذه الخيانة بكلّ هدوء ورزانة وتتجاهل ما حدث إطلاقاً حرصاً على كرامتها وكبريائها وتتركه لضميره.. أليست خيانة الضمير أشد ألماً من خيانة الجسد".

رأي لا شك له وجاهته ويحفظ البيوت من التفكك والانهيار وحتى نكافئ ممثلتنا الراقية على هذا الرأي النبيل فالواجب أن ندفع عنها تهم لا دليل عليها حول عملها مع الموساد ومع الحكومة الإسرائيلية وتدبيرها لقتل سميرة موسى وهي أقوال مرسلة لا دليل عليها وادعائات لو كانت حقيقية لظهرت في وقتها وقد كانت نجمة مشهورة وأخبارها تملأ الدنيا وتعاون كهذا في فترات الخمسينيات والستينيات ولو على سبيل التكهن كان بالتأكيد سيخرج للعلن ويكشف للعيان وتكون في مرمى الهجوم أما أن يخرج الاتهام اليوم دون أدنى دليل ودون تبنٍ حتى من الموساد، فهو أمر غير لائق خاصةً وأنّها اختارت الانطواء برغبة كاملة منها شأن ممثلات كثيرات.

ولندلف للتفاصيل.. "راقية إبراهيم" أو "راشيل أو راحيل أبراهام ليفي" وهو الاسم الحقيقي لها اتهمتها عدد من الصحف المصرية في أوائل الألفينات بأنّها ضالعة في اغتيال عالمة الذرة المصرية "سميرة موسى" في أغسطس عام ١٩٥٢م، بالتعاون مع الموساد وهو الأمر الذي لا دليل عليه، كما أنّ الثابت أنّ راقية إبراهيم زارت الولايات المتحدة في ديسمبر ١٩٥٢م، في رحلة علاجية من "التليف الكبدي" أيّ بعد وفاة سميرة موسى بعدة شهور، ولم ترحل عن مصر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بشكل دائم إلا عام ١٩٥٧م بعد انفصالها عن زوجها مهندس الصوت "مصطفى والي" وقد وقعت على وثيقة الطلاق في السفارة المصرية بباريس وهي ضمن كثير من اليهود المصريين الذي تركوا مصر بعد ما ضاق عليهم الحال في مصر إثر العدوان الثلاثي على مصر في هذه الفترة وما تلاه من نظرة عدائية تجاههم.. رحلت راقية إبراهيم مع من رحلوا ولم يثَر أي شيء حولها في هذه الآونة كما لم يصدر عنها أي تصريحات عدائية تجاه مصر، بل إنّها وهي تمثل مصر في مهرجان برلين الدولي في يونيو ١٩٥٢ م عن دورها في فيلم زينب (قصته مأخوذة عن رواية زينب لمحمد حسين هيكل وسبقه فيلم صامت بنفس الاسم مثلته بهيجة حافظ) كانت فخورة برفع علم مصر ودموعها تنهمر وهي تسمع اسمها يتردد على كلّ لسان، وهذا بحسب رسالة منها للمخرج محمد كريم مما يفند منطقياً المزاعم حول عملها لصالح الكيان الإسرائيلي في الأمم المتحدة، كما أنّ صفحة "إسرائيل تتكلم بالعربية" في يونيو ٢٠٢١م حينما احتفت بذكرى ميلادها لم تشر إليها بأكثر من كونها "من مشاهير اليهود المصريين في الساحة الفنية والثقافية"، ولو كانت مزاعم تعاونها مع الموساد حقيقية لكانت إسرائيل الأولى بإعلانها والفخر بدورها المبكر في دعم دولتهم الغاصبة.

25- في كتاب "تاريخ حائر بين بان وآن" اقتصرت على ذكر مسابقات الجمال التي تقام بين الأطفال في مصر، فهل كانت بالفعل موصدة دونهم وما جدوى انتشارها في هذا الوقت؟ وهل حقيقي عبارة أنّ "الجمال أصله مصري"؟!

لا بالطبع، بل كانت هذه المسابقات أشبه بالصيحة العالمية والموضة المنتشرة في بلدان العالم والصحف والمجلات المصرية كان لزاماً أن تحاكي مثيلاتها في العالم وفي كتاب تاريخ حائر بين بان وبعده كتاب هوامش على دفتر أحوال مصر، أفردت مساحات شتى من الكتابين لمناقشة مسابقات الجمال بأشكالها المختلفة بين النساء والأطفال والحقيقة أنّ أهمية هذه المسابقات بين الأطفال أن أفرزت مواهب فنية شتى تربعت على عرش الشاشة العربية لسنوات بعد ذلك، ففاتن حمامة سيدة الشاشة العربية كانت إحدى المواهب المكتشفة بإحدى مسابقات الجمال وهو ما أهلها للوقوف أمام محمد عبد الوهاب في فيلم "يوم سعيد" ١٩٤٠ م.. الحال ذاتها للفنانة سعاد حسني وأخريات..

مسألة أنّ الجمال نبعه مصري فلا أعتقد أنّ هذا القول صحيح جملةً وتفصيلاً ولو ذهبت حول العالم بضغطة زر على شبكة الإنترنت تتفحص الأجناس حول العالم ستكتشف زيف هذه المقولة وبمتابعة مسابقات الجمال حول العالم تجد أنّ حاصداتها أغلبهن من أوروبا وأمريكا وبعض آسيا.

لكن دعنا من الحاضر الآن ولنجِبْ من الماضي، حيث كان رأي بعض الإنجليز منتصراً للعبارة سالفة الذكر.

ففي مجلة الاثنين العدد ٣٦٣ في ٢٦ مايو ١٩٤١م، وتحت عنوان "المصريات أجمل نساء في العالم!" نقلت المجلة عن أحد الضباط الإنجليز أنّه قابل في لشبونة مستر "برت فيش" الوزير المفوض للولايات المتحدة في مصر ثماني سنوات، ثمّ من بعدها البرتغال وقال له فيش: "إنّ مصر لا تمتاز بالأهرام وأبي الهول فحسب، ولكن تمتاز بأنّ بها أجمل نساء العالم" اعتبرت المجلة أنّ التصريح خطيرٌ لأنّه صادر من رجل أمريكي أصله من فلوريدا "كعبة الجمال" في الولايات المتحدة.. لكنّ المجلة اختلفت مع "فيش" الذي رشّح صاحبة السمو الأميرة "نسل شاه" كريمة الأمير عمر الفاروق وحرم الأمير محمد عبد المنعم لتكون صاحبة أجمل وجه في العالم، واختارت المجلة خمس سيدات اعتبرهن كاتب الموضوع "ونظره على قده" بحسب تعبيره أجمل سيدات المجتمع المصري وهن بحسب ترتيبه:

١- حرم المهندس عز الدين بيك عمر وجمالها مصري "قح" أي "خالصٌ صافٍ".

٢- الأميرة هان زاده (أو زهرة هان زادة أو زهراء خانزاده) كريمة الأمير عمر الفاروق وقرينة الأمير محمد علي إبراهيم وجمالها تركي (وبالمناسبة فابنتهما هي الأميرة فاضلة خطيبة فيصل الثاني آخر ملوك العراق قبل اغتياله... طبعاً سواء نسل شاه أو هان زاده فكلتاهما بنات الأمير عمر الفاروق وهو أكبر أولاد السلطان العثماني عبد المجيد الثاني، وقد تزوج من ابنة عمه "رُقية صبيحة" ابنة السلطان محمد السادس (وحيد الدين أتينا على ذكره في سؤال آخر) وأنجب ثلاث بنات وبالتالي فانتمائهم لمصر لا يعدو كونهن متزوجات بأمراء من الأسرة الحاكمة بمصر..)

٣- السيدة سعاد راشد قرينة الدكتور عمر شوقي وجمالها مصري - شركسي.

٤-السيدة أوديت دوس (جمالها مصري- فرنسي).

٥-فتاة لا داعي لذكر اسمها... جمالها فلاحي وأعتقد أنّه يقصد كلّ جمال فطري مصري معطر برحيق القرية المصرية الممتهن حقوقها في هذه الآونة.

****

26- أشرت في كتابك "نوستالجيا الواقع والأوهام" أنّ طه حسين كان ناقماً على اللغة حتى في طريقة كتابته لاسمه (طاها) كسراً لقواعدها فلماذا؟ كما أود السؤال لماذا أستشعر في كتاباتك نوعاً من الاستخفاف بجهود الرعيل الأول من العظماء كالعقاد وطه حسين وأنيس منصور؟!

بداية فالاسم الحقيقي للدكتور طه حسين هو (طاهر حسين علي) كما ذكرنا مراراً واختياره لطه بدلاً من "طاهر" في اعتقادي ينبع من تمرده على طفولته ومقته لها لكونها عنوان شقائه ومتاعبه، وليس هناك ما يربط بين المرء وطفولته أكثر من اسمه الذي يطل على آذانه طوال الوقت.. كذلك لم يكن خافياً عليه وهو الطالب الأزهري النابه أنّ "طه" ليس من أسماء النبيّ كما شاع بين المتأخرين، لذا فاختياره لطه أولاً: لأنّه لا يكلفه سوى حذف حرفين من اسمه الأصلي وثانياً: لأنّه يعني بالنسبة له تخطى مرحلة مضت باعتبار أن معنى طه: رجل بالسريانية وبالتالي فالاسم هنا رمز لمرحلة الشباب والرجولة والتي تقلصت معها متاعبه وبدأ الحظ يبتسم له فيها).

وثمّة دليل آخر أنّ الدكتور طه حسين رفض أن يدفع **400** جنيه ثمناً للبيت الذي نشأ فيه (بحسب مجلة آخر ساعة) ومن ثمّ هدم ذلك البيت الذي شهد مولده في عزبة الكيلو التابعة لمركز مغاغة بمحافظة المينا عام **1889**م.

أكاد أجزم أنّ القارئ لتصوري سيتهمني بعدم العمق في التحليل والسطحية، ولكن الشخصيات التاريخية التي نتحدث عنها هي مثلنا كبشر سواء بسواء تصورات أنفسهم ليست طوال الوقت بهذا القدر من العمق وسأضرب بالدكتور طه

حسين مثالاً، فحينما تحدث عن أصل كلمة "إنفلونزا" ردها إلى أصل عربي يزعم أنّ الكلمة مشتقة من (أنف المعزة) لأنّ "أنف المعزة مزكوم دائماً، فأطلق على كلّ مزكوم أنّه مريض بأنف المعزة، وذاعت الكلمة في أسبانيا ومنها لسائر أوروبا" ويرجى العودة في ذلك لكتاب سكرتيره الدكتور محمد الدسوقي: "أيام مع طه حسين". تحليل العميد هنا هو تحليل اجتهادي، لكنّه غير عميق البتة والصواب أنّ أصل كلمة إنفلونزا مشتق من اللغة الإيطالية من الكلمة اللاتينية (**influential**) وتعني "التأثير والنفوذ أو التدفق إلى" وهي مصطلح شاع في العصور الوسطى لوصف الأوبئة لاعتقادهم أنّها ناجمة من تأثير السوائل غير الملموسة المنبعثة من النجوم وفي عام **1357**م أطلق سكان فلورنسا بإيطاليا على الوباء الذي اجتاحها اسم "إنفلونزا دي فريدو" أي "تأثير البارد"، في إشارة إلى السبب المحتمل للمرض. وقد انتقل المصطلح إلى اللغة الإنجليزية لأول مرة عام ١٧٤٣، مع تفشي ما أطلق عليه الإيطاليون اسم "إنفلونزا دي كاتارو" أو "وباء النزلة" في أنحاء أوروبا ليختصر المصطلح إلى "إنفلونزا"...

وبهذا فالإنفلونزا لا علاقة لها لا بأنف الوزة ولا أنف المعزة!

ويمكن التأكد من قاموسي ميريام وبستر الأمريكي ودورلاند الطبيّ على الروابط:

1-https://www.merriam-webster.com/wordplay/influenza-flu-word-history-origin

2- Dorland’s illustrated medical dictionary. 30th ed. Philadelphia: Saunders; 2003 and Quinion M. World

wide words. 1998 Jan 3 [cited 2005 Dec 5]. Available from http://www.worldwidewords.org/topicalwords/tw-inf1.htm

3- https://www.history.com/topics/inventions/flu

إذاً تفسيري لاسم "طه" أعتبره اجتهاداً أخي القارئ إن أصبت كبد الحقيقة فيه كنت كالمعاجم العلمية دقة وإن أخطأت كنت على قدر عميد الأدب العربي في اجتهاده المشكور!

فيما يخص القسم الثاني من السؤال، فالعكس هو الصحيح، فأنا من عشاق كتابات الدكتور طه حسين ودائماً في أي لقاء تليفزيوني أو إذاعي أشير إلى اعتزازي أنّ أسلوب الدكتور طه حسين الرشيق كان أحد أسباب محبتي للقراءة، وكذلك مدرسة العقاد في التفكير وطريقة أنيس منصور في عرض الطرائف بشكل سريع وممتع ومصطفى صادق الرافعي في الدفاع عن الإسلام ومحمد حسين هيكل في العرض.. بلا شك أنّني أكن بالفضل لجميعهم، ولكن هذا لا يمنع من الاختلاف معهم في مسائل عدة وإبراز زيف أنّ عالم الأدب في الماضي كان مثالياً، فجميعم بشر وسمات البشر الاختلاف والتنافس على الدوام، وحسبنا أن نورد هنا على سبيل المثال تقييم الأستاذ الدكتور محمد مندور شيخ النقاد لمفكري عصره، وكان في بداياته من تلاميذ العميد.. في حوار مثير نشر في مجلة "المصور" العدد ١٧٧٧ في ٣١ أكتوبر ١٩٥٨م، طرح (صالح جودت) على مندور سؤال شائك: "هل عندنا أديب يستحق جائزة نوبل؟!" فأجاب مندور بدون تحفظ "لا... لست أرى أن عندنا من يستحق هذه الجائزة" وأردف معللاً ذلك بأنّه لا يعرف بين أدبائنا (طبعاً افتح القوس وضع ما شئت من

أسماء) من أضاف شيئاً إلى التراث الإنساني، وأكمل بشكل مسهب "إنّ الأصالة والخلق المستحدث والكشف عن جديد من الأسرار النفسية هي العناصر التي تنقص أعلام الأدب عندنا، فلا ترشح أحداً منهم لجائزة نوبل" الطريف أنّ حتى شعر شوقي لم يسلم من نقد مندور، فحينما سئل عن مدى استحقاق أمير الشعراء شوقي لها. قال في صراحة يغتبط عليها: "لا.. لو احتكمت إلى ضميري الأدبي فإنّي لا أعطيها لشوقي".

والحقيقة وإن كنت أتفق مع مندور في كلّ ما قال إلا أنّني أجد آراءَه في معاصريه وإن لم يحددهم عاكسة لخلافات عصره، وخير دليل أنّ نفوس أدباء ونقاد الزمن الجميل في شقاق وخصام... ما الدليل على ما تقول؟! هاكم الدليل..

في حديث لطه حسين مع الأستاذ ثروت أباظة نقله الدكتور محمد الدسوقي في كتابه "أيام مع طه حسين".. تطرق إلى رأي العميد في مندور وأنّه "ليس شيئاً ذا بال في الثقافة وليس له دور فكري هام في حياتنا الثقافية في هذا القرن" كما وصف كتابه "النقد المنهجي عند العرب" "بالهايف". فيما كان رأي الأستاذ ثروت عن مندور أنّه كان ينقد دون أن يقرأ وكان محبّاً للمال، وكان هذا دافعه للكتابة ولو في غير تخصصه.

كما أشار العميد وبشكل مباشر إلى نقطة ضعف مندور والذي دائماً ما طاردته من خصومه وهي أنّه قضى في بعثته لباريس اثني عشر عاماً دون أن يحصل على الدكتوراه وبدلاً من ذلك حصل على الليسانس في الأدب اليوناني وعدة دبلومات متهماً إياه "بالعبث واللهو وعدم الإخلاص للعمل".. محمد مندور ظلّ يدفع عن نفسه هذه

الاتهامات ويؤسس لرواية من وجهة نظره وهي أنّ الهدف من بعثته الحصول على درجة الليسانس في الآداب واللغات اليونانية واللاتينية والفرنسية وفقهها المقارن من جامعة السوربون وأنّ اندلاع فتيل الحرب العالمية الثانية هو الذي حال دون حصوله على الدكتوراه، لكن ما يكشفه الأستاذ الدكتور سيد علي إسماعيل في دراسته "أثر الوثائق في تغيير المفاهيم" أنّه ومن واقع اطلاعه على ملف مندور الوظيفي تكشف الوثائق أنّ محمد مندور أوفد من قبل الحكومة المصرية للحصول على الدكتوراه في أدب اللغة العربية في غضون أربع إلى ست سنوات، ولكنّه رسب عدة مرات متتالية في مقررات الدكتوراه، ورغم ذلك تحملت الجامعة المصرية بعثته تسع سنوات ومنح فرصة نهائية للبقاء على نفقته، لكنّه فشل بشكل نهائي وفي النهاية حصل على الدكتوراه من الجامعة المصرية. إذا كان طه حسين هو الأصدق في روايته وإن حملت بين ثناياها سخطاً ومقتاً داخلياً لأحد تلاميذه... كلّ هذا العرض وغيره مما ورد في كتبي السابقة يشي بأنّنا لسنا بصدد مناخ إبداعيّ فريد اجتمع لكوكبة من الموهوبين فاجتمعوا على قلب واحد فأينع وأثمر واستفادت مصر وأسس لحركة أدبية عملاقة وضعت مصر في مصافّ الدول المتقدمة، وكلّ ما هنالك أنّنا أمام جزر منعزلة من الفكر تتشاحن وتتطاحن والمحصلة "صفر كبير" لمصر في الماضي ونظيره في الحاضر والحل لمصر المستقبل في سيادة روح الفريق والجماعة والاجتماع على أهداف نزيهة غير نفعية تضع خير مصر ورفعة شعبها في الأمام وكفى بهذا الهدف مأرباً ونفيعاً....

أما عن أنيس منصور فليس لمثلي أن يصدر حكماً عليه، بل أقتبس هذا النص من كتابه (عاشوا في حياتي) مع بعض الإيجاز وأحسب أنّ هذا النص كافٍ ووافٍ وشافٍ

للحكم على أمانة الرجل في الرواية وكفى بهذا النص شهيداً.. يقول كاتبنا الكبير أنّ "كامل الشناوي حكى لأم كلثوم أنّ عبد الناصر بعد انفصال سورية والنكسة العسكرية قد غاب عن الوجود أو في حالة غيبوبة.. وأنّ مصر يديرها الذين حوله.. انتهى كلّ شيء.. انتهى الرجل.. بكت أم كلثوم ودخلت غرفتها واتصلت بأنيس لتسأله عن صحة ما قال كامل الشناوي والواضح أنّها اكتأبت بعدها فعدلت عن السفر للخارج.. ليس لديها رغبة في الغناء.. لا تريد أن تقابل أحداً... ذهب كامل الشناوي وبرفقته أنيس لأم كلثوم وقال ضاحكاً: يا ست إنما أردت أن أهيئك نفسياً لغناء قصيدة جديدة حزينة... تشعل الهمم من أجل الثأر.. عبد الناصر سوف ينتقم أعظم انتقام.. وإنّ الانسحاب كان خطة.. صدقته أم كلثوم وأكلت وضحكت ونامت نوماً عميقاً"..

وكما يقولون في الهيروغليفية "توتة توتة"

انتهى كلام أنيس وحان وقت اختباري لك عزيزي القارئ!

متى كانت النكسة العسكرية؟!

بالتأكيد ١٩٦٧ م

متى كانت وفاة كامل الشناوي؟!

٣٠ نوفمبر ١٩٦٥ م

الآن استخرج عبارة صحيحة واحدة من رواية كاتبنا الكبير أنيس منصور؟!

****

27- تحدثت في كتابك "نوستالجيا الواقع والأوهام" عن نموذج بديع لأطفال أقباط شكلوا جمعية المساعي الخيرية عام ١٩٢١ م فهل هناك أمثلة أخرى لأطفال سلكوا نفس المسلك وسعوا في دروب الخير من خلال بحثك في أرشيف الصحافة المصرية؟

إنّها بذرة الأخلاق حينما تزرع في نفوس طيبة كالأطفال لابد وأن تنمو وتترعرع وتزين ربوع مصر فلا أشك لحظة في أنّ النموذج الأوّل الذي شهدته "الفيوم" كان هو الملهم لجماعات أخرى من الأطفال لتسلك نفس السبيل وسأسوق مثالاً أيضاً من مجلة اللطائف المصورة التي كانت تشجع هذه النماذج المبشرة لجيل يليق باسم مصر وسمعتها ففي العدد ٤٢٧ من المجلة في ١٦ أبريل ١٩٢٣م نشرت صورة لمجموعة من تلامذة السنة الثالثة بمدرسة سعيد الأوّل أسسوا جمعية "الرفق بالأيتام" في الإسكندرية وهم: علي أحمد علي، ومحمد حسن علي، وعلي الجرتلي، ومحمد دواره، ومحمد سعيد، ومحمد درويش عباده، وإبراهيم النزهي، والسيد عناني، وحسن مصطفى، وحسين صبحي، وسعيد الغيار" وقد جعلوا الاشتراك قرشاً واحداً في الأسبوع يقتصد من مصروف كلّ عضو لمشترى اللبن والشاي والبسكويت وتقديمه للأطفال الأيتام المساكين"...

****

28- ما هي الميزة التي تشعر أنّها لا تفارق المصريين قديماً وحديثاً وبريقها لا ينطفئ من واقع مراجعتك لأرشيف الصحافة المصرية؟!

لو عكست السؤال لقلت لك السلبية... لكن أما وقد اخترت المزايا، فالمصريون لا تفارقهم خصلة الجدعنة... أعتقد أنّه طبع أصيل متغلغل في التاريخ المصري ومحفور في وجدانه ولولا أنّي تعاملت مع أحد مديري الصيدليات (أطلقت عليه حمبوزو) كان قمة في النذالة على رغم من ثرائه وامتلاكه صيدلية بجوار أحد النوادي تديرها حماته إلا أنّه كان يهوى الانبطاح والعمل لدى الغير؛ ليهرب من المسؤولية المباشرة وحدث أن أثرت مشكلة مع أحد المرضى، فصمّم على رفع المشكلة إلى الإدارة على الرغم من تنازل الشاكي وعدم اكتراث الإدارة، إلا أنّه ظلّ يعافر يومياً لأحصل على لفت نظر... لولا هذا النموذج البائس ومنه كثر لقلت: إنّ الجدعنة "جين" يجمع المصريين كافة...

طاقات خلاقة يمكن استثمارها في تكوين جمعيات لنشر الأخلاق ومحو الأمية ونشر الوعي الصحي وجهود الإنقاذ وغيرها بعد إكسابهم المعارف اللازمة للقيام بهذه المهام خير قيام وعلى أسس علمية لا اجتهادية ارتجالية فتضر من حيث يرتجى منها الإصلاح..

وقد أوردت نماذجَ عدة من شهامة المصريين "ملوك الجدعنة" في الماضي وأعطي مثالاً جديداً هنا من مجلة اللطائف المصورة العدد ٣٥٤ في ٢١ نوفمبر ١٩٢١ م وتحت عنوان "شهامة شاب مصري" نشرت المجلة صورة للشاب المصري الباسل "حسن بيك شريف" والذي غامر بحياته لإنقاذ سيدتين من الغرق في الإسكندرية خرجتا للاستحمام في البحر الهائج المتلاطم، فاستغاثتا واستنجدتا ولبى الرجل نداءَهما

وأنقذهما بعدما يئس الناس من نجاتهما ومن فرط الإجهاد أصيب بالإغماء جراء جهاده العنيف مع أمواج البحر، وحمل إلى منزله في رمل الإسكندرية حتى عولج وتماثل للشفاء.

في مقابل هذه الخصلة لدى المصريين توجد ذميمة أجدها في استشراء وهي أنّ الجزاء والثواب وللأسف لا يكون من جنس العمل، والخير يقابله جحود ونكران في أحيان كثيرة، فمثلاً لو تحركنا ببصرنا على نفس الصفحة من المجلة وبجوار الشاب الشهم نجد صورة أخرى للضابط المصري الملازم أوّل "أحمد أفندي حمدي الرشيدي" من ضباط الجيش المصري وزوجته هي السيدة أنيسة هانم الرشيدي رئيسة جمعية أمهات المستقبل... للأسف لا أملك معلومات كافية عن تاريخ الرجل سوى ما ذكرته المجلة من أنّ "له خدمات في النهضة المصرية واعتقل في رفح عام ١٩١٩م" لكنّه ولأسباب سياسية لا تذكر منها المجلة سوى توديعه سمو البرنس "عزيز باشا حسن" عند سفره وإبعاده عن مصر ولهذا "رأت الحضرة السلطانية أنّ لا لزوم لخدماته وفصله من الخدمة".. والأمير عزيز باشا حسن هو سليل الأسرة العلوية وقد درس الأصول الحربية في ألمانيا، ومما يروى عنه أنّه وأثناء دراسته بألمانيا في مدينة بوتسدام اشترى سيارة "دي ديون بوتون" الفرنسية الصنع وكانت تعمل بقوة البخار وأدخلها معه مصر عام ١٨٩٠م لأول مرة، وكان حدثاً فريداً بالنسبة للمصريين الذين شاهدوا مغامرة البرنس عام ١٩٠٤م بسيارته ذلك الاختراع العجيب الذي تحركه العفاريت! إذ لم يعهد المصريون في ذلك الوقت غير العربات التي تحركها الدواب واستمرت رحلة الأمير لمدة عشر ساعات من القاهرة إلى الإسكندرية بسيارته إذ لا تتجاوز سرعتها القصوى أكثر من عشرين كيلو متراً في الساعة،

ونظراً لأنّ الطرق لم تكن ممهدة في هذا الوقت، فقد حصدت الرحلة خسائر فادحة للفلاحين المساكين الذين أتلفت زراعتهم وقتلت بعض حيواناتهم وقيل إنّ الفلاحين كادوا يفتكون به وقد جهلوا شخصه! وهو قائد إحدى الفرق العثمانية في معركة "قرق كليسا" أثناء حرب البلقان الأولى والتي منيت فيها الدولة العثمانية بواحدة من أثقل هزائمها أمام حلف من أربع دول بلقانية هي صربيا وبلغاريا واليونان والجبل الأسود، بسبب سوء الإدارة وفرار الجيش العثماني وفيه من لا يعرف استخدام البندقية! وكانت هذه الهزيمة من أسباب دخول تركيا الحرب العالمية الأولى والتي هزمت فيها أيضاً.

أصيب عزير باشا بالدوسنطاريا وجاء لمصر للعلاج.. طبعاً مبادرة ضابط مصري لوداع أمير علوي لكن في الوقت ذاته أحد قادة الجيش العثماني ربما لم ترق لأصحاب القرار في مصر في ظلّ الحماية البريطانية على مصر، واستحكام الخلاف بين تركيا (دولة الاحتلال السابقة لمصر) وبريطانيا (دولة الاحتلال الحالية الجاثمة على أنفاس مصر)، حيث يمكن أن تظهر تعاطفاً من بعض أفراد الجيش المصري تجاه دولة الخلافة... لكن ألم يشفع ما قدمه الضابط في الماضي من خدمات في منع فصله؟!

في المقابل منح الأمير فرصة العودة مرة أخرى عام **1921**م، ومع انخراطه في صفوف الوطنيين من حزب الوفد أُبعِدَ مرة أخرى، ثمّ سُمِحَ له بالعودة في فبراير **1925**م، وتوفي في ديسمبر من العام نفسه.

تحت نفس العنوان السابق وجدت نفسي حائراً فيما يتعلق بالشيخ "طه محمود قطرية الدمياطي الشافعي" المصحح اللغويّ والموصوف بكونه "الفاضل اللوذعي

الأريب والأديب الألمعي الجهبزي، والنحرير العلّامة والنابغة الفهّامة" صاحب التقاريظ المميزة لكتب عدة منها كتاب "الحكم المبرم في أن أم التي تزوجت بلا ولي بتقليد أبي حنيفة محرم لشهاب الدين أحمد بن أحمد بن إسماعيل الخليجي الحُلواني" وفيه يقول الشيخ طه مقتبساً عن البوصيري: "وحيثما كلنا يسعى إلى غرض.. فحبذا ناضل منا ومنضول" وله كتاب "كفاية المستكفي من الفن الصرفي -بين عامي ١٨٩٣-١٨٩٤م".. رجل مشهود له بالعلم والكفاءة المهنية بإجماع أهل عصره (في حدود المتاح لنا من معلومات).. المثير ما عثرت عليه بالمصادفة وهو مخاطبة من "ألفريد شيلي باشا" مدير المطبعة الأميرية ببولاق في ٢٣ يوليو ١٩٠٧م، إلى ناظر المالية لإعلان الشيخ طه محمود رئيس المصححين بالمصلحة "بالرفت" من خدمتها لغاية (٢٢ يوليو) وتسلم إليه في يوم تاريخه "وتحرر له كشف بصرف استحقاقه عن مدة ٢٢ يوم وخلو طرفه"... ونضع هنا هذه الورقة التاريخية على سبيل الاستئناس فلو صحت.. ما الداعي لإجراءٍ كهذا بحق رجل بهذه الكفاءة؟! وهل حينما نعاقب لخطأ نمحو من ذاكرتنا محاسن الشخص وأفضاله؟! أيكون هذا جزاء الإحسان؟! دعنا من التاريخ وأياً كانت التفاصيل... لمَ لا نبني الواقع على أسس من الاعتراف بالجميل والشكر على كل صنيع ولو صغر؟! لمَ لا نجعل من ثقافة الشكر عبادة في حياتنا بدلاً من الجملة المقيتة حين المطالبة باستحقاق أو زيادة راتب: "الشغل لا يقف عند أحد"؟! والجملة الأمقت منها عند التكليف بأعمال غير منصوص عليها أو المطالبة بإجازة: "أنت ابن الشركة وعماد عملها" أتدري أنّنا أشبه بما كانت تفعله قبيلة "بني عبس" مع "عنترة بن شداد" ففي الحرب يحمل السيف والرمح ليزود عن الديار وفي السلم والرخاء يعاير بسواد بشرته وعبوديته وأنّه غير أهل للزواج بابنة عمه.

29- في كتاب "صفحات من التاريخ الإسلامي دروس وعبر" تعرضت لشخصية الحجاج عن كثب فما رأيك في قول الحسن البصري عنه: "إنّ الحجاج عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع، فإنّه تعالى يقول: {ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون} (المؤمنون /٧٦). الطبقات لابن سعد (٧/ ١٦٤) بإسناد صحيح" هل هذا الرأي يلخص الدروس المستفادة من تجربة الحجاج في تاريخنا الإسلامي؟!

بداية فقضاء الله خيره وشره نافذ في كلّ صغيرة وكبيرة في خلقه بكلّ وقتٍ وحينٍ والقول بأنّ الحجاج "عذاب الله" يوحي وكأنّه كتل من نيران سقطت على قوم مسالمين.. أكان الحجاج استثناءً بعصر كلّه صالحون وهو النبتة الشيطانية بينهم؟! هذا ليس صحيحاً.. الحجاج صنيعة عصره وليس شذوذاً عنه.. العصور الأموية والعباسية أفرزت ألف حجاج وألف بمنهجية كاملة من العنف ضد الآخر والإجهاز على الخصوم، وليس هذا من قبيل المصادفة.. بل معدٌّ له بدقة وإمكان.. هي صناعة مرتبة لرجال النظام وليست مسألة طوعية أو ارتجالية أو على سبيل الشهوات المتباينة.

فالحجاج والألف حجاج إن أردنا أن نصفهم هم أبناءُ أنظمتهم المخلصون ونتاجها ومعبرون عنها وممثلون لأهدافها بكل إخلاص ويؤدون أدوارهم المؤسسية بإحكام.. وإن أردنا وصفاً أدق لهم فهم "نتاج شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا" وتحولنا عن منهاج النبوة والرسالة إلى حصاد الدنيا وغرور متاعها والتنافس على الجاه والمال والسلطان والتماس الدعة وتبرير النفاق ولا فرق في ذلك بين حكام وعوام وعلماء فالحكام خطوا الطريق لهذا التحول والعوام والعلماء ساروا في مناكبه..

قال تعالى في سورة الروم: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١))..

إرهاصات ميلاد الحجاج بحسب المراجع الإسلامية كانت تمهد له باعتباره كائناً شاذاً أتى من خارج الكوكب الأرضي واخترق كالنيزك نسيج الأمة رغماً عنها في لحظات صفاء، وهذا من عيوب بعض القصص الإسلامي الذي يشخصن القضايا فيفرغها من دروسها وعبرها فهل لنا أن نتصور أنّ شخصاً واحداً اسمه عبد الله بن سبأ (ابن السوداء نسبة لأمه الحبشية ويهودي تظاهر بالإسلام في عهد عثمان بن عفان) قد أوقع كلّ هذه الفتن الإسلامية العظيمة بين جيل إسلامي كامل شكله المصطفى صلى الله عليه وسلم لسنوات عدة؟! بالتأكيد لا.. ولا ينبغي لذلك أن يكون.. فالمجتمع وثيقُ العرى القائم على رسالة نبيلة لا ينقسم بفرد انشق عنه أو انضم له ليهدمه.. نعود للحجاج وميلاده... تقول المصادر الإسلامية: إنّ أم الحجاج هي "الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي" وكانت زوجة للحارث بن كلدة الثقفي (وقيل المغيرة بن شعبة والذي تزوج بسبعين امرأة أو أكثر وكان يجمع كلّ أربع ويطلقهن دفعة واحدة!) وهو طبيب العرب الشهير ومختلف حول إسلامه وتاريخ وفاته، وحدث أن دخل عليها يوماً تخلل أسنانها بقطعة من خشب وذلك "وقت السحر أي قبيل الصبح" فخالط نفسه شعور بالريبة نحوها فهي إما شرهة تتعجل وقت الغداء ولم يحن وإما غير نظيفة تذكرت للتوّ أن تنظف أسنانها من طعام العشاء، وقد مضى أجله منذ وقت طويل فتسرع في طلاقها ولم يسألها ولم يسمع تبريرها إلا حينما سألته عن سبب طلاقها، وقد فندت شكوكه بقولها: "كل ذلك لم يكن. لكني تخللت من بقايا السواك" ولكن ذلك لم يفلح في عودتهما مجدداً..

تزوجت الفارعة للمرة الثانية من "يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر الثقفي" وولدت له "كليب" أو "الحجاج" كما عرف.. الآن استعد عزيزي القارئ لالتقاط إشارات ميلاد كائن "دراكولي" غريب هبط من الفضاء السحيق لكوكب الأرض على حين غرّة، فبحسب القصص الإسلامي أنّ كليباً أو الحجاج ولد مشوهاً "لا دبر له"، فثقب عن دبره أو نقب عن دبره (اعتقد أنّه يقصد أنّه ولد تام الذكورة أو الرجولة) ومع إصراره على عدم الرضاعة من أمه أو من غيرها فتمثل الشيطان لهم في صورة زوجها الأول "الحارث بن كلدة" وأمرهم أن يذبحوا له جدياً أسوداً أول يومين ويولغوه دمه وفي اليوم الثالث تيساً أسود وأسود سالخاً، ويولغوه دمهما فلما كان اليوم الرابع أقبل على ثدي أمه! ومن وقتها أصبح لا يصبر على سفك الدماء... وهكذا أرادت الرواية الإسلامية للحجاج أن يكون من مصاصي الدماء منذ ميلاده.. هل تصدق مثل هذه القصص؟!

أتريد أن تعرف المعنى الحرفي لابن النظام والذي خرج من رحمه ومن عباءته كلّ أولاد النظام؟! إذاً هلّم بنا لنتعرف على "زياد ابن أبيه"..

الطريف أنّ الحجاج بن يوسف وزياد ابن أبيه قد جمعهما "الحارث بن كلدة" كزوج لأم الأول ومالك لأم الثاني...

بحسب الرواية الإسلامية ولد "زياد" مجهول النسب من ناحية أبيه بينما أمه كانت جارية أهديت للحارث بن كلدة في فارس فعاد بها لموطنه "قبيلة ثقيف" بالطائف وقد أسماها "سمية".. وفي الطائف ولدت سمية غلاماً اسمه زياد سفاحاً من "أبي سفيان" قبل إسلامه وأنّ الأخير ربما خشي من إعلان نسبه إليه.. ومن القصص الدالة أنّ زياد كان يلقي خطبة ذات مرة -وكان مفوّهاً -في حشد من الناس عن

إحدى معارك المسلمين مما أثار إعجاب الحاضرين "فقال أبو سفيان لعلي بن أبي طالب: أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى؟ فقال علي: نعم، قال أبو سفيان: أما أنه ابن عمك، قال وكيف ذلك؟ قال أبو سفيان: أنا قذفته في رحم أمه سمية. قال علي: وما يمنعك أن تدّعيه؟ فقال: أخشى الجالس على المنبر (يقصد عمر بن الخطاب)". بينما ولدت سمية للحارث: أبو بكرة ونافع وذلك بزعم منهما أنّه وطئها...

ما يجمع الرجلين أيضاً التحولات الضدية في حياتهما التي لا تتبرر أهدافها سوى الانتهازية السياسية الشائعة في هذه العهود.

فالحجاج ولا داعي أن نكرر ما قلنا ويمكن الرجوع له في الكتاب تحول من معلم للقرآن إلى ضارب لأعناق فقهائه، أما زياد بن أبيه فتحول من معسكر "علي وبنيه" بعد استتباب الأمر لمعاوية ليكون أحد أذرع الدولة الأموية الداعمة ومما يروى أنّ معاوية هدده بقتل أولاده تارة ولما لم يفلح الترهيب.. تحول للترغيب وعرض عليه أن يلحقه بنسب أبيه "أبي سفيان" فقبل! ومن وقتها أصبح زياد المثال الحرفي لابن النظام قلباً وقالباً، وقد ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان، ثمّ الكوفة، ثمّ البصرة والكوفة.. وقد أثار هذا الانتساب وآثاره حفيظة بعض الفقهاء مثل "الحسن البصري" استناداً لقول رسول الله ﷺ: "الولد للفراش، وللعاهر الحجر". كما هجا يزيد بن المفرغ الحميري هذا الانتساب قائلاً:

أَلا أَبلِغ مُعاوِيَةَ بنَ حربٍ ... مُغَلغَلَةً مِنَ الرَجُلِ اليَماني

أَتَغضَبُ أَن يُقالَ أَبوكَ عَفٌّ ... وَتَرضَى أَن يُقالَ أَبوكَ زانِ

فَأَشهدُ أَنَّ رِحمَكَ مِن زيادٍ ... كَرِحمِ الفيلِ مِن وَلَدِ الأَتانِ

ولزياد ابن أبيه خطبة شهيرة حينما ولي البصرة هي وخطبة الحجاج من معين عنف مخضب بالدماء (أوردناها في كتاب صفحات من التاريخ الإسلامي دروس وعبر) سميت بالبتراء لم يفتتحها بحمد الله، كما جرت العادة يقول فيها: "أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العـمياء، والغي الموفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور التي يشب فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير! كأنّكم لم تقرؤوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته! قربتم القرابة وبعدتم الدين، كلّ امرئ منكم يذب عن سفيهه صنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً، ما أنتم بالحلماء، وقد اتبعتم السفهاء! حرام عليَّ الطعام والشراب، حتى أُسويها بالأرض هدماً وإحراقاً.... إنّي رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف.. وإنّي أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: "انجُ سعد، فقد هلك سعيد." أو تستقيم قناتكم. وإياي ودلج الليل، فإنّي لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه، وإياي ودعوى الجاهلية فإنّي لا أجد داعياً بها إلا قطعت لسانه، ولقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، ولقد أحدثنا لكلّ ذنب عقوبة، فمن غرّق قوماً غرّقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيّاً. وأيم الله إنّ لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كلٌّ منكم أن يكون من صرعاي."...

دعني أقول قبل أن نمضي لسؤال آخر: إنّ المسؤول عن هذه النماذج من الحكام هي سلبية الناس وسأدلل بمثال من حيث ابتديت سؤالك، فالحجاج كان ممن يميتون

الصلاة ويصلونها بعد فوات وقتها... فهل كان أحد ليجرؤ أن يذكر الحجاج بفوات موعد الصلاة؟! وقد كان فيهم أنس بن مالك والحسن البصري نفسه والذي يقول بعد موت "الحجاج" عنه أنّه "يصعد على المنبر فيخطب حتى تفوته الصلاة وتحته مائة ألف أو يزيدون، وما يقدر رجل منهم أن يقول له: الصلاة أيّها الأمير" ومن ذلك وضعت قاعدة "جواز الصلاة خلف الأئمة الفجار"..

الحال نفسه نشاهده ولا نستغربه فحال الناس واحد وإن اختلفت المشاهد وما أورثه قدامى العلماء من خشية ورهبة وملاينة صار دستوراً يتبعه المتأخرون منهم..

لكن وبالتدريج أُضيفت إلى خطوة تطويع الدين وإيجاد حلول شرعية خشية إغضاب الحكام خطوة أخرى وهي التساهل في الدين خاصة وأنّ العصور المتأخرة أخذت تشع قتامة وأجنحة التغيير قد قضمتها أنياب الدهر، ورقدت بلا حراك.. ومما نجده طريفاً في هذا الصدد ما ذكره الجبرتي في حوادث شوال عام ١٢١٣ هجرية (١٧٩٩ م تقريباً) أنّ الناس اجتمعوا لصلاة العيد في المساجد والأزهر وكان يوم الجمعة "واتفق أنّ إمام الجامع الأزهر نسي قراءة الفاتحة في الركعة الثانية، فلما سلم أعاد الصلاة بعدما شنع عليه الجماعة" وما إن انطلق الرجال والنساء لزيارة القبور حتى احتال عليهم أحد الحرافيش عند تربة باب النصر وراح يصيح في الناس تخويفاً بأنّ العرب (لصوص من بدو الصحراء) قد نزلوا فخاف الناس واضطربوا وهنا هاجمهم الحرافيش والجعيدية (المتسولين من بعض المتصوفة) للاستيلاء على متاعهم فخطفوا ثياب النساء وأزرهن وعمائم الرجال ومن فرط ما أصاب الناس من الرعب أن بعض النسوة متن تحت الأرجل! في مشهد واحد وفي ساعة واحدة يمكن أن يتلخص

قتامة حال مصر.. شيخ ينسى الفاتحة، والفاتحة ركن من أركان الصلاة استناداً لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "لَا صَلَاةَ لِمَن لَمْ يَقْرَأْ بفَاتِحَةِ الكِتَابِ" ومع ذلك لا يبادر لتصحيح السهو إلا بعد تشنيع الناس أي فضحه على الملأ! و"بلطجية" ترك لهم الحبل على الغارب ليسرقوا الناس ويروعونهم بغير حق في يوم "عيد" ولله الأمر من قبل ومن بعد.

****

30- الملاحظ أنّك ألّفت كلّ كتبك في وقت متزامن؟! أين كنت من قبل؟! ولماذا تسرع الخُطى الآن تحديداً؟! كما ألاحظ أنّك تسقط على الحوادث قبساً من سيرتك الشخصية فلماذا؟!

سأكون صريحاً أنّني في بداياتي لم يكن لدي القدرة المادية على ارتياد ميادين النشر الورقيّ، وكنت بمصر أعمل طوال الوقت بين عملي الصباحي والمسائي (دعاية - صيدليات - شغل عن بعد) وكان دخلي بالكاد ينفق ما بين احتياجات المنزل والدراسات العليا وكفى بذلك.. لذلك كنت أكتب على البوابات الإلكترونية ومن بعدها ورقياً ببعض الصحف، وبعد السفر وتيسير الحال والحمد لله رب العالمين دائماً وأبداً على واسع فضله، كان لزاماً أن أخطو هذه الخطوة، فكان أوّل كتاب لي تجميعاً لمقالاتي المتناثرة لسنوات، والتي فوجئت أنّ كثيراً منها قد اختفى من البوابات الإلكترونية لإغلاق بعضها، مثل بوابة الحضارات وهافينجتون بوست ووجدت عناء شديداً في تجميع نصوصي إذ لم يكن في ذهني أني سأجمعها في كتاب، وكنت مطمئناً أنّها لن تُمحى إلكترونياً، فأهملتُ في حفظ بعضها لدي على الإيميل أو الهاتف أو "اللاب توب" ولك أن تتصور أنّ بعض هذه الأصول حصلت عليه من النسخ المخزنة مؤقتاً لهذه الداتا على جوجل...

لهذا تعلمت أن أحافظ على ما أكتب بنسخ مرتبة لدي في ملفات "ورد" وأن أنشرها في كتب بالتزامن مع نشرها ورقياً وإلكترونياً... كلّ الكتب التي أصدرتها هي حصاد معلوماتي المتواضعة لسنوات طويلة قبلها، وقد حرصت أن أستغل الفرصة الآن

فلربما لا تسنح مرة أخرى نسأل الله أن يعافينا من تقلبات الدهر، وأن يديم علينا نعمه وفضله...

أما إيراد أجزاء من قصصي الشخصية فهي لأنّي أعتمد في أسلوبي على القصص والدردشة وحياتنا جميعاً متشابهة في أُطرها العامة، لكن تختلف في التفاصيل وإيراد القصص الشخصية الطريفة يجعلني على مسافة واحدة مع القارئ نتقاسم التفكير ونطرح الحلول معاً، بل ونتشارك أحزاننا وأفراحنا معاً، ولا أكذبكم القول إنّي أجد في ذلك سلوى وتنفيساً عن ضيقي أحياناً، وتسلية لوحدتي في أوقات كثيرة، وسأضرب مثلاً للطرافة في هذا الأسلوب الذي أتبعه ولن أورد مثالاً قديماً من كتبي بل سأطرح أمثلة جديدة فمن حق قارئ هذا الكتاب ألا يجدني أكرر موضوعاتي وأمثلتي، بل يشعر بأنّ هناك إضافات جديدة ومعلومات مشوقة جديدة مع كلّ كتاب أطرحه..

المثال الأول: في بداية عملي بالصيدليات كنت وأصدقائي نتزاور في الصيدليات التي نعمل بها وذات مرة كنا في ضيافة زميل صيدلاني بخيل بعض الشيء... كان الشاي يزنه بمقدار لا يتعدى نصف ملعقة صغيرة والسكر بمقدار ملعقة صغيرة واحدة ولا تطاوعه نفسه أن يخرق هذه الموازين البتة مهما كانت الأسباب.. وفي أحد المرات والواضح أنّ الشاي وقتها قد نفد لديه، وكنا بآخر الشهر فدعانا إلى مشروب عشبي تحت جناح أنّ الإفراط في الشاي الأسود يسبب "تسمم الكافيين" ويسبب الهزات والعصبية والصداع والخفقان والأرق، وأنّ شعاره صار "الصحة تاج على رؤوس الأصحاء"! طبعاً بعضنا تبادل نظرات لا تخلو من معنى، فقد كنا نعرف طباعه... المهم ما إن تناولنا المشروب العشبي حتّى تحركت بطوننا مع تقلصات شديدة

وأسرعنا بالانصراف لدخول الحمام، وما أندر الحمامات النظيفة الإفرنجية في ربوع مصر.. اتضح لنا بعد ذلك أن زميلنا صاحب مقولة "الصحة" و"خطورة الكافيين" لم يجد لديه ما يضيفنا به سوى شاي عشبي للإمساك انتهت صلاحيته منذ أكثر من ستة أشهر!

هذا الموقف داعب ذاكرتي وأنا أطالع العدد ٣٣٣ من مجلة الاثنين والدنيا في ٢٨ أكتوبر ١٩٤٠ م وما فعله "جلال مصطفى (بحسب موقع السينما. كوم هو مونتير مصري. التحق باستديو مصر منذ عام ١٩٣٦ وأوّل فيلم قام بتحريره هو (سلامة في خير) عام ١٩٣٧وهو شقيق المخرج نيازي مصطفى) "الموظف باستديو مصر حينما أراد أن يتشبه بحاتم الطائي ولو مرة في العمر، فدعا بعض زملائه في الاستديو إلى وليمة إفطار (كان الوقت رمضان) وكان الجو حاراً والمدعوون يشكون الحر فاقترح أحدهم على المضيف أن يسعفهم بزجاجة الكولونيا، فأحضر لهم "جلال" واحدة هجموا عليها دعكاً وتدليكاً في أصداغهم وأنوفهم وعيونهم وما هي إلا لحظات حتّى شعر الجميع وكأنّ ناراً تكوي جلودهم، واتضح أنّ "جلال" جاءهم بماء نعناع مضافاً إليه "غير قليل من الشطة" فكان ما كان.

المثال الثاني: أتدري يا عزيزي أنّ من أوائل الكتب التي اقتنيتها في حياتي كان كتاب عراقي قديم يرجع إلى السبعينيات عن "التنويم المغناطيسيّ".. مسألة تبدو لك مستغربة، لكنّها في جيلي تعد فضولاً لا مفر منه... كنا نعيش في أوائل التسعينيات طفولة كلّ متنفسها القديم من الأفلام العربية الأبيض والأسود والتي تعرض يومياً في موعد ثابت يوم الخميس، ضمن فقرات اليوم المفتوح المنوع على مدار اليوم والجمعة بعد حديث مولانا الشيخ محمد متولي الشعراوي.. كانت الحياة بسيطة

والتليفزيون لا يبث سوى ثلاث قنوات والثري هو من يتمرد عليهم ويمتلك الفيديو ليشاهد الأفلام الملونة الحديثة... دائماً ما كنت أصاب بالهلع وأنا أشاهد التنويم المغناطيسيّ الذي يؤديه البطل ليسلب من أمامه كلّ إرادة، ويجعله طوعاً لأوامره التي بالطبع تصب في خانة الشر.. حاولت أن أتقمّص دور الشرير يوماً وأن أنفّذ مخططاً كهذا وبين يدي الكتاب الذي كنت أعتبره كنزاً وقع بين يديّ، لكنّني وجدت أنّ ما ورد فيه لا يعدو بعض الدراسات النفسيّة، وكلام عام لا يخدم مأربي، وأنا على أولى سلالم الشر أقلد ما شاهدت دون وعي.

لما كبرت فطنت إلى خطورة ما كنا نشاهد ونقلّد، فالتنويم المغناطيسيّ أداة علاجية مساعدة لا علاج في حد ذاته.. تستخدم في إطار طبيّ تنظيميّ لا يهدف أبداً إلى سلب الإرادة، ولكن كوسيلة غير دوائية لتخفيف الألم والمخاوف والهواجس.

مرّ هذا كلّه بذهني وأنا أطالع اللطائف المصورة ولأنّني من "الزقازيق" فقد استوقفني هذا الخبر الطريف من المجلة في عددها ٧٤٢ في ٢٩ أبريل ١٩٢٩م، وتحت عنوان "عيد الميلاد الملكي في الزقازيق - الدكتور "سالمون" (أتينا على ذكره في هوامش على دفتر أحوال مصر) والتنويم المغناطيسيّ".. تحدثت المجلة عن حفلة الشاي "الشائقة" التي أقامها حضرة "محمد سعيد العزبي بيك" مدير الشرقية في ٢٦ مارس وضمت مستر براين قنصل بريطانيا وحرمه ومحمد بيك فؤاد حكمدار البوليس ومدام مونيه ومسيو بسالتي وحرمه، وحافظ بيك محمد ومحمود بيك توفيق، وذلك احتفالاً بعيد ميلاد جلالة الملك فؤاد، وتخلل الحفل فقرات للدكتور "سالمون" المنوم المشهور حيث أجرى تجاربه المغناطيسية عبر تنويم وسيطه المسيو إميل وتعصيب عينيه وأخذ يستطلع بواسطته أفكار الحاضرين ومن طرائف "سالمون" مع سعد باشا زغلول

أن وضع كوباً من الألومنيوم في يده وظلّ ينظر له حتى ثقل على "سعد" ولم يعد يستطيع حمله فألقاه من يديه...

****

31- تحدثت في كتابك "على مقهى الأربعين" عن تعدد الزوجات وأعدت طرح المسألة مرة أخرى في سياق تاريخي عبر كتاب "رواق القصص الرمضاني" وطرحت مثالاً بالرجل الذي تزوج ستين امرأة فهل من تفاصيل أكثر عنها؟!

فيما يخص تعدد الزوجات لن أزيد عليه بأكثر مما سمعت في محاضرة لأحد المشايخ الأفاضل من أنّ واجب الزوجة أن تحصن زوجها بالزواج بأخريات، وأنّه نجح في إقناع أستاذة جامعية أن تنتقي لزوجها زوجة ثانية، وعاشا معاً في تعاون ووئام.. بالتأكيد هو مظهر حضاريّ أن تبر المرأة زوجها وأن تحيد الأنانية الطاغية على نساء اليوم. (انظر حكايات الأمثال وحكاية زوجة الشيخ حسن الجبرتي).

فيما يخص الرجل الذي تزوج ستين امرأة (٥٧ امرأة تقريباً) الذي تناولته في كتابي رواق القصص الرمضاني، فالكتاب في خطوطه المعدة لا يهدف لمناقشة تفاصيل قضايا اجتماعية تاريخية بإسهاب يطغى على الدروس المطلوب أن تصل القارئ والوقت رمضان، لذلك فقد جاء التناول من جانبي لهذه القضية سريعاً وخاطفاً لإعطاء ملمح تاريخي لدرس أو عبرة في ظلال من المناقشة التاريخية الجادة مراده "افعل.. ولا تفعل" مستفيداً من دروس الماضي وأهله.

كلّ المتاح لدي من الأرشيف عن قضية "عيسوي الشريف" بحسب مجلة العروسة ١٩٣٢م أو "عيسوي بيك شريف" بحسب اللطائف المصورة في عددها ٥٦٣ في ٢٣ نوفمبر ١٩٢٥م، أنّه من أعيان مركز كفر الزيات وأنّه تزوج بأكثر من ٥٧ امرأة وتخلص منهن بتطليقهن بعد معاشرة كلّ واحدة منهن مدة لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة أشهر وفي عصمته نساء مطلقات لم يعلمن بطلاقهن بينهن سيدة حامل...

وأنّه كان يهدد زوجاته بالطلاق إذا ظهرت عليهن علامات الحمل لعدم رغبته في زيادة النسل، بل وأجهض بعضهن.. وكان يحتاط لنفسه من النفقة الشرعية في حالات الخلاف والطلاق بكتابة ورقة طلاق لدى مأذون شرعيّ بشهادة شاهدين من خدمه أو من الأميين الجهلاء، وأنّ مطلقته غير حامل، وتسلمت صداقها والنفقة.. فيما كان يعذب بعض زوجاته الضعيفات لإبرائه من الصداق والنفقة.

الطريف أنّ القضية التي امتدت من عام اكتشافها ١٩٢٥م وحتى الحكم فيها غيابياً على الرجل عام ١٩٣٢ م قد استحوذت على اهتمام الصحف والرأي العام المصري والعالمي فصحيفة "البورص ايجيبسيان" التي كانت تصدر بالفرنسية في مصر قارنت بين قضية عيساوي وبين السفاح الفرنسي "لاندرو" الذي تزوج سبع نساء تخلص من كلّ واحدة منهن بالقتل وقصة "لاندرو" لا تبتعد زمنياً كثيراً عن هذه القضية إذ نفذ فيه حكم الإعدام في نوفمبر ١٩٢١م والفارق بينهما أنّ "لاندرو" اشتهر بتصيد الأرامل المسنات، وكانت الحرب العالمية الأولى فترة زمنية مثالية له وحقلاً خصباً لجرائمه إذ خلفت الحرب العديد من الأرامل اللاتي كان يحتال عليهن بدعوى الزواج ويسلبهن أموالهن، ثمّ يقتلهن ويخفي معالم جرائمه بإحراقهن في الموقد وقد بلغ عدد ضحاياه إحدى عشرة ضحية: عشر سيدات علاوة على ابن إحداهن.. أما الصحف المصرية ومنها اللطائف المصورة، فقد أخذت في ممازحة قرائها عنه، فجاء عنوانها عن الحادثة "هو بعينه... البطل الذي تزوج ستين امرأة" ومالت المجلة في تشبيه وجهه إجمالاً ونظرته المعنوية باللورد "هوراشيو هربرت كتشنر" المعتمد البريطاني السابق في مصر (١٩١١م-١٩١٤م) غير أن كتشنر كان شاربه طويلاً وعازباً يكره النساء، لكن ما غفلت عنه المجلة أن "كتشنر" كان

يملك ساقين طويلتين جعلاه يفوق معاصريه طولاً (6 قدم 2 إنش أي 1.88 م) مقارنة بعيساوي الذي يبدو بحسب وصف المجلة "قصير القامة أو ربعها قوي البنية تنم ملامحه على الصلابة والعناد "...

****

32-عند حديثك في كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر" تحت عنوان "طبيب في مستشفى المجاذيب" تشككت في رواية الطبيب "علي عبد السلام" حول المحسوبيات في البعثات العلمية في هذا الوقت المبكر واتهمت الصحافة المصرية في الماضي بالتقصير؟!

ما تفضلت به في النهاية هو بيت القصيد: أين دور الصحافة المصرية في التيقن من الروايات وإجراء حوارات مع أطراف القضية المثارة للوقوف على حقيقة المسألة من جوانبها المختلفة؟! فالبعثات العلمية في وقت الملك فؤاد كانت على أشدها وكانت تذلل كافة العقبات أمامها. انظر في سؤال سابق لبعثة الدكتور محمد مندور عام ١٩٣٠ للحصول على الدكتوراه من السوربون، وتحمل الحكومة المصرية ولمدة ثماني سنوات نفقاته على الرغم من رسوبه المتكرر في مقررات الدكتوراه، كما أسلفنا في إجابة سؤال سابق اعتماداً على دراسة أ. د. سيد علي إسماعيل...

وحتى لو تأملنا في أرشيف الصحافة المصرية نجد الكثير من أوجه الدعم للمبتعثين فمثلاً "محمد الرافعي أفندي" نجل أديبنا الكبير "مصطفى صادق الرافعي" وكان أوّل الناجحين في مدرسة طنطا الثانوية في امتحان البكالوريا، وقد أمر الملك فؤاد بإرساله إلى فرنسا لدرس الطب والعلوم النفسية بجامعة ليون، وذلك بحسب مجلة المصور في عددها ١٨٨ في ١٣ أبريل ١٩٢٨م.. ما ينفرد به محمد سعيد العريان في كتابه "حياة الرافعي" من أن بعثة ابنه لليون كانت على نفقة الملك فؤاد وهذا هو السبب الأساسي الذي جعل الرافعي يتراجع عن مزاحمة ومنازلة الشاعر عبد الله عفيفي والمقرب من زكي الأبراشي باشا للانفراد بلقب شاعر القصر (راجع كتاب صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر) خشية "انقطاع المعونة الملكية عن ولده".

نعود لموضوعنا الأساسي وهو أنّني لا أشكك في رواية الدكتور علي فرحمة الله عليه وعلى كلّ أبطال ماضينا، إنما أقف عند هذه النقطة لأطور الاستفادة منها في الارتقاء بدور الصحافة الذي لم يشهد نهوضاً كبيراً عبر العهود المختلفة. وتعالوا نتوقف عند مثال يستحق أن يدرس في أهمية الصحافة في إبراز الخطأ وبلورته ليسود الصواب ويعتلي مكانته.

المثال من جريدة الصحافة العدد ٨٧ في ١٦ ديسمبر ١٩٠٦م (السنة الثانية... جريدة سياسية علمية أدبية تجارية أسبوعية لصاحبها ومحررها مصطفى توفيق) ففي أخطاب (قرية تتبع مركز أجا في محافظة الدقهلية) استعان أحد أهلها برجلين من ناحية ميت مسعود (تتبع أجا أيضاً) ليدسا السم لأخيه في القهوة مقابل "عشرة جنيهات" وهو ما قد تم وما إن "قام هذان الرجلان بمأموريتهما خير قيام" حتى شعر الأخ المسكين بأعراض التسمم بمجرد أن وصلت القهوة لأمعائه، فأسرع مهرولاً ومستنجداً بالعمدة.

الطريف هنا والذي تنبه له الجريدة أنّ العمدة حضر في التوّ ومعه أحد معاوني الإدارة لسؤال الرجل المسموم، وتم إبلاغ النيابة وحضر الحكمدار ومساعد نيابة السنبلاوين ومعاون بوليس منية سمنود (مركز أجا دقهلية) وقبض على الرجلين وكذلك "الرجل المغري" والذي أنكر في البداية...

كلّ هذا قد تم وأهمل ما هو أهم وهو إسعاف الرجل المسموم، والذي مات وهنا تشير الجريدة إلى السبب في أنّه "لم يحضر مفتش الصحة مع المحققين" أو "لم يبدأ بالقيام بوظيفته الطبية إلا بعد الانتهاء من التحقيق" بينما عظم المصاب ومات الرجل.. لذا

ومن منطلق مسؤولية الصحافة فهي "تهيب بولاة الأمور" بضرورة الاعتناء بالمعتدى عليه وعدم تركه ريثما يتم إجراء التحقيق القانوني في إدانة المتهم فيموت المجني عليه كما حدث في هذه القضية.

من الأمثلة أيضاً ما نجده في اللطائف المصورة في عددها ٣٨٩ في ٢٤ يوليو ١٩٢٢م من إصرار على رسالتها في ضرورة نقل الصورة لقرائها، ولو كانت مؤلمة فعقب كارثة سقوط سقف جامع أبو العلاء وموت المصلين في بولاق (راجع كتاب نوستالجيا الواقع والأوهام) حاولت المجلة الحصول على إذن بالتصوير داخل الجامع، لكنّها اصطدمت برفض مدير المساجد ووكيل وزارة الأوقاف تحت زعم أنّ "المنظر مؤثر" ولا يجوز نقله، لكن ذلك لم يفت في عضد المجلة التي تحايلت على هذا الرفض وأرسلت مصورها "اليدوي" ليرسم صورة "كروكية" للحادث من واقع شهادات مستخدمي الجامع ومن معاينة الأنقاض..

هذا هو أساس مهمة الصحافة ومناط رسالتها أن تكون لسانَ صدق عن الشعب ويحفظ التاريخ أنّ أوّل الصحف في أوروبا كانت في روما وحملت اسم "السجل اليومي للأخبار" أو "سجل أخبار الشعب" أو "الأعمال اليومية" أصدرها الإمبراطور الروماني "يوليوس قيصر" عام ٥٨ ق.م لنقل جلسات مجلس الشيوخ للناس فضلاً عن الأخبار المتنوعة خارجياً واجتماعياً وحربياً..

ولأنّ الشيء بالشيء يذكر فمن الطريف أن نسوق الفرق بين المجلة والجريدة بحسب ما ورد في أرشيف الصحافة العربية في مطلع القرن الماضي ونستعين في ذلك بمجلة "العرفان" المجلد الخامس في ٢٩ نوفمبر ١٩١٣م (مجلة شهرية في صيدا مديرها

المسؤول أحمد عارف الزين)، فأوّل من استعمل لفظ "الجريدة (من جريد النخل)" أحمد فارس الشدياق صاحب صحيفة "الجوائب" (١٨٨١ - ١٨٨٤م) في إسطنبول وأوّل من استعمل لفظ "المجلة" الشيخ إبراهيم اليازجي صاحب مجلة "الضياء" في عام ١٨٩٨م، في القاهرة ذلك أنّ المجلة "صحيفة تحمل الحكمة" بحسب القاموس...

****

33- أغلب حوادث القتل بالسم التي استعرضتها قديماً كانت بدسم السم في القهوة.. لماذا في ظنك؟!

ربما لأنّ القهوة كانت المشروب المعتاد لجموع المصريين ومن السهل دس السم فيه دون أن يلاحظ الضحية.. أما على مستوى العلم، فلقد لاحظت أنّ السم الشائع قديماً والسهل الحصول عليه هو "الاستركنين"، حيث إنّه مادة قلوية مستخلصة من نبتة جوز القيء تستخدم كمبيد للقوارض، وبالتالي فالقهوة تعتبر وسطاً مثالياً لدس هذا النوع من السموم وسرعة الإجهاز على الضحية، وذلك لأنّ القهوة تحتوي على "الكافيين" والكافيين يشبه جزيئياً "الاستركنين" واللذان يعملان معاً على نفس المستقبلات العصبية التي تسبب الوفاة، حيث يمنعان مستقبلات الجليسين مما يزيد من مستويات حمض الجلوتاميك في المخ، مما يزيد انقباض العضلات علاوة على تأثير الكافيين في منع مستقبلات الأدينوزين مما يسبب الزيادة المستمرة في مستويات منبهات الجسم الطبيعية، الدوبامين والنورأدرينالين ويؤدي لزيادة في معدل ضربات القلب وضغط الدم وزيادة في التبول أو الإسهال والأرق والقلق..

****

34- في كتابي "هوامش على دفتر أحوال مصر" و"نوستالجيا الواقع والأوهام" استعرضت أعداداً كبيرة من أنواع الجرائم في مصر لتخلص أنّ مصر حاضرها كماضيها في هذا السياق.. لكن ما هي القضايا التي عزفت عن ذكرها؟!

أقسى ما كان على نفسي هو تناول القضايا الخاصة بنبش القبور.. أتدري كثيراً ما كنت أحزن في قرارة نفسي حينما أشاهد خطابات خاصة أو صوراً شخصية وعائلية لأناس رحلوا تباع على الأرصفة كان ينتابني شعورٌ بأنّ هذا انتهاك قاسٍ لخصوصية الموتى يبخس من حقهم علينا، وكان الأقصى عليّ أن أجد صور زفاف من الماضي تصبح مادة للتهكم والتنمر على صفحات السوشيال ميديا لقصر قامة العريس أو دمامة العروس لدرجة أن تمنيت أن أحرق كلّ ما لا أحب أن يطلع عليه غيري بعد مماتي والأعمار بيد الله.. شعورٌ قاسٍ جدّاً تولد لدي وأنا هنا أتحدث عن انتهاك حرمة المتعلقات الشخصية وبمقابل زهيد لا يضيف للبائع ولا للورثة شيئاً.. فما بالك بانتهاك أجساد الموتى بعد أن تفارقهم الحياة؟!

في العصور الإسلامية كان للميت كرامة ولجسده حرمة ولقبره احترام، هذه الأمور من قبيل الفطرة وكانت لا تفتح القبور إلا لمصلحة عامة في أضيق الحدود أو لتكريم أصحابها بنقلهم لأماكن أفضل....

في عهد النبوة كان يؤمر بشق نخل للتخفيف عن الميت، وحينما ماتت "فاطمة بنت أسد بن هاشم" زوجة "أبي طالب" عم النبيّ صلى الله عليه وسلم والتي تربى النبيّ في كنفها أدخلها النبيّ قبرها وألبسها قميصه واضطجع معها في قبرها ليخفف عنها

وحشة القبر.. ولما أراد "معاوية بن أبي سفيان" أن يوصل المياه لجموع المسلمين واصطدم بقبر شهداء أحد رضي الله عنهم ووجوب نقلهم ليجري العين وذلك لمنفعة عامة بعد أربعين سنة (وقيل ست وأربعين) من استشهادهم فأخرج أصحابها رضي الله عنهم ليعاد دفنهم في مكان آخر بعيداً عن الماء وبحضور أقاربهم ليكونوا شهداء فأصابت المسحاة قدم سيدنا حمزة بن عبد المطلب، فانبعثَ دمٌ وقيل إنّهم كانوا كأنّما دفنوا بالأمس على حالتهم ويفوح من قبورهم ريح المسك.

في زمن "جوزيف ستالين" أمر في يونيو ١٩٤١ م بإرسال بعثة علمية إلى سمرقند لنقل رفات "تيمورلنك" القائد المغولي الرهيب من مرقده في بكور أمير إلى موسكو وقيل حول السبب روايات شتى منها: رغبة ستالين في دفن تيمورلنك في مقبرة القادة العظام، وقيل للبحث عن كنز بمقبرته، لكنْ سيل من الحوادث الجسام أطلق عليها "لعنة تيمورلنك" دفعت ستالين للتراجع وإعادة الجثمان ومنها بحسب ما قيل: اندلاع الحرب مع ألمانيا النازية بشكل غير متوقع بعد يومين فقط، كما قيل: إنّ الكهرباء انطفأت لحظة فتح القبر وسادت رائحة مسكرة، كما وجدوا عند مقبرته نقشاً يقول: "عند استيقاظي من الموت لابد أن يرتعش العالم"، وقيل: إنّ مخطوطة وجدت تقول: "أولئك الذين سيفتحون القبر سيهزمون من قبل عدو أكثر هولاً مني".. طبعاً مثل التحذيرات لو صح العثور عليها، فهي ليست من الإعجاز في شيء فالقصد منها صرف اللصوص وإخافتهم لا أكثر ولا أقل..

هكذا في رحلة الماضي لا تنبش القبور بشكل رسمي إلا لمنفعة أو تكريم.. بالتأكيد لم يكن الماضي مثالياً، فهناك العديد من سرقات القبور خاصة الفرعونية منها وكذلك بيع الهياكل لطلبة الطب في بعض العصور أو حتى تجار المخدرات مع انتشار

الإتجار في الهيروين.. لكن "جماع الموتى" كان ظاهرة عصرية بشعة قلّما نجد لها نظيراً في الماضي.

في الآونة الأخيرة طفت على السطح قضايا يشيب من هولها الولدان ومن هول فداحتها تقشعر الأبدان، ومن هذه الحوادث حرق جثة ممرضة حلوان على يد تربي مدمن للمخدرات؛ بعد أن أخرجها من قبرها وعاشرها جنسياً، وذلك بحسب موقع القاهرة ٢٤ في شهر سبتمبر ٢٠٢١ م.. الحادث نفسه وقع بالجزائر في مدينة "سلا" حيث تسلل أربعة شبان إلى مقبرة سيدي بنعاشر المجاورة لضريح القطب الصوفي مولاي عبد الله بن حسون أحد أبرز أقطاب الطريقة الشاذلية، حيث أخرجوا جثة لشابة عذراء من قبرها واغتصبوها بوحشية "قل نظيرها"، وذلك بحسب جريدة هسبريس الإلكترونية في ٢٠ مايو ٢٠٢٠ م..

شتان كذلك بين ما كنا نسميه في الماضي بفواجع الجرائم وبين الجرائم التي يعجز الكلام عن وصفها حالياً، فمثلاً: جرائم القتل نجدها على نحو ما جاء في اللطائف المصورة العدد ١٦١ في ١١ نوفمبر ١٩٢٧ م ومقتل "خليفة السيد البدوي" حيث قام المجرمون بضرب "السيد عبد العزيز الخليفة" خليفة المقام الأحمدي في طنطا على رأسه بعدة ضربات، ثمّ خنقوه وألقوه في اليم ولم تظهر الجثة طافية إلا بعد خمسة أيام وفي العدد (١٢٨) من مجلة المصور في ٢٥ مارس ١٩٢٧ م جاء الخبر بإحالة أوراق "عباس محمود قنديل" إلى فضيلة مفتي الديار المصرية وإصدار الحكم في ٢١ مارس عليه بالإعدام، حيث قام بقتل الجوهريين الرومانيين "بركوفتش" وولده في محلهما بشارع فؤاد الأول في وضح النهار رمياً بالرصاص، وحاول الهروب لكنّ الناس والبوليس تمكنوا من القبض عليه وهي "الجناية الفظيعة" التي هزت

العاصمة بحسب اللطائف المصورة في عددها ٦٢٨ في ٢١ فبراير ١٩٢٧ م.. كلّ هذا يتواضع أمام عصرنا وما فعلته فيه فتاة بعمر العشرين من بورسعيد -طالبة بكلية الآداب -حيث قامت بقتل والدتها مشرفة النظافة بإحدى المستشفيات بمساعدة عشيقها وهو حدث عمره ١٥ عاماً، حيث خشيت من اكتشاف أمها أنّها ليست بكراً... وبحسب بوابة المصري اليوم في ١٩-٢-٢٠٢٣م "طلبت الأم من ابنتها وصديقها أن يمهلاها وقتاً لترديد الشهادة وبانتهاء المرة الثالثة لنطقها الشهادة قال لها المتهم: (كفاية عليكي كده) وراح يضربها بزجاج مكسور وانهال عليها بعصا بها مسامير على رأسها لتغرق في دمائها". وهي من أعاظم الجنايات التي لم أرَ لها مثيلاً في القسوة وفي فداحة الجرم وبشاعته قديماً وحديثاً...

****

35 - أستشعر أنّك من المشككين في بعض الروايات التاريخية وخاصة الإسلامي منها؟!

ليس تشكيكاً بقدر ما هو استشعارٌ لمبالغات كثيرة.. أعتقد أنّ العمدة في هذا الأمر هو الرجل الذي وجد يضع أحاديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قيل في فضل قراءة بعض السور فلما سئل لماذا تكذب على النبيّ صلى الله عليه وسلم؟ قال: "أنا لا أكذب على النبيّ صلى الله عليه أنا أكذب له"... أنواع الكذب كثيرة ودوافعها عديدة، ولكن هذا النوع من الكذب أخطرها، لأنّه يصدر عن أُناسٍ صادقين مع أنفسهم ومخلصين لرسالتهم يختلقون أكاذيب في شكل قصص يظنون أنّ بها يصلحون أمتهم وينشرون بها الأخلاق.. هذا الرجل دون أن يدري شكل من بعده مدرسة أفرزت تلامذة عِدة له عاثوا في التاريخ تأليفاً وإفساداً... وتعالوا نضرب مثالاً على ذلك: "قصة الحجاج مع الغلام الشجاع" والتي تقول وننقلها بكامل نصها هنا كما وردت: "بينما الحجاج جالس وعنده وجوه أهل العراق، أتى بصبي، فلما أدخل عليه لم يعبأ بالحجاج ولم يكترث به وإنما صار ينظر إلى البناء وما فيه من العجائب، ويلتفت يميناً وشمالاً، ثمّ اندفع يقول: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)} (الشعراء: ١٢٨ – ١٢٩). وكان الحجاج متكئاً فاستوى في مقعده، وقال: يا غلام، إني أرى لك عقلاً وذهناً، حفظت القرآن؟ قال الغلام: أوخفتُ عليه من الضياع حتى أحفظه، وقد حفظه الله تعالى؟ قال: أجمعت القرآن؟ قال الغلام: أوكان مفرقاً حتى أجمعه؟ قال: أفأحكمت القرآن؟ قال: أليس الله أنزله محكماً؟

قال الحجاج: أفاستظهرت القرآن؟ قال: معاذ الله أن أجعل القرآن وراء ظهري. فقال الحجاج وقد ثار غضباً: ويلك! قاتلك الله، ماذا أقول؟ قال الغلام: الويل لك ولقومك، قل: أوعيت القرآن في صدرك؟

فقال الحجاج: فاقرأ شيئاً. فاستفتح الغلام: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجاً. فقال الحجاج: ويحك! إنّهم يدخلون، فرد عليه الغلام قائلاً: كانوا يدخلون أما اليوم فقد صاروا يخرجون. فقال الحجاج: ولمَ؟ قال الغلام: لسوء فعلك بهم.. قال الحجاج: ويلك يا غلام! وهل تعرف من تخاطب؟ قال الغلام: نعم، شيطان ثقيف: الحجاج. قال الحجاج: ويلك! من رباك؟ قال الغلام: الذي زرعني. قال الحجاج: فمن أمك؟ قال الغلام: التي ولدتني. قال الحجاج: فأين ولدت؟ قال الغلام: في بعض الفلوات. قال الحجاج: فأين نشأت؟ قال الغلام: في بعض البراري. قال الحجاج: أمجنون أنت فأعالجك؟ قال الغلام: لو كنت مجنوناً لما وصلت إليك ووقفت بين يديك، كأنّني ممن يرجو فضلك أو يخاف عقابك. قال الحجاج: فما تقول في أمير المؤمنين؟ قال الغلام: رحم الله أبا الحسن - رضي الله عنه -، وأسكنه جنان خلده. قال الحجاج: ليس هذا عنيت، إنما أعني عبد الملك بن مروان. قال الغلام: الفاسق الفاجر. قال الحجاج: ويحك! بم استحق اللعنة أمير المؤمنين. قال الغلام: أخطأ خطيئة ملأت ما بين السماء والأرض. قال الحجاج: وما هي؟ قال الغلام: استعماله إياك على رعيته، تستبيح أموالهم، وتستحل دماءهم. فالتفت الحجاج إلى جلسائه وقال: ما تشيرون في هذا الغلام؟ قالوا: اسفك دمه، فقد خلع الطاعة، وفارق الجماعة. فقال الغلام: يا حجاج! جلساء أخيك فرعون خير من جلسائك، حيث قالوا لفرعون عن موسى

عليه السلام وأخيه: {أَرْجِهْ وَأَخَاهُ} (الأعراف: ١١١) وهؤلاء يأمرون بقتلي، إذاً والله تقوم عليك الحجة بين يدي الله ملك الجبارين ومذل المستكبرين. فقال له الحجاج: هذّب ألفاظك، وقصّر لسانك، فإنّي أخاف عليك بادرة الأمر، وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم. فقال الغلام: لا حاجة لي بها، بيّض الله وجهك، وأعلى كعبك. فالتفت الحجاج إلى جلسائه وقال: هل علمتم ما أراد بقوله: "بيّض الله وجهك وأعلى كعبك؟ "قالوا: الأمير أعلم. قال: أراد بقوله: "بيّض الله وجهك" العمى والبرص، وبقوله: "أعلى كعبك" التعليق والصلب. ثمّ التفت إلى الغلام وقال له: ما تقول فيما قلت؟

قال الغلام: قاتلك الله، ما أفهمك! فاستشاط الحجاج غضباً، وأمر بضرب عنقه، وكان الرقاشي حاضراً، فقال: أصلح الله الأمير، هبه لي. قال الحجاج: هو لك، لا بارك الله لك فيه. فقال الغلام: والله لا أرى أيكما أحمق من صاحبه؟ الواهب أجلاً قد حضر، أم المستوهب أجلاً لم يحضر؟ فقال الرقاشي: استنقذتك من القتل وتكافئني بهذا الكلام؟ فقال الغلام: هنيئاً لي الشهادة إن أدركتني السعادة، والله إنّ القتل في سبيل الله أحبّ إليّ من أن أرجع إلى أهلي صفر اليدين. فأمر له الحجاج بجائزة وقال: يا غلام قد أمرنا لك بمائة ألف درهم، وعفونا عنك، لحداثة سنك وصفاء ذهنك، وحسن توكلك على الله، وإياك والجرأة على أرباب الأمر، فتقع مع من لا يعفو عنك. فقال الغلام: العفو بيد الله لا بيدك، والشكر له لا لك، ولا جمع الله بيني وبينك... ثمّ همَّ بالخروج فابتدره الغلمان، فقال الحجاج: دعوه، فوالله ما رأيت أشجع منه قلباً، ولا أفصح منه لساناً، ولعمري ما وجدت مثله قط، وعسى هو أن يجد مثلي، فإن عاش هذا الغلام ليكونن أعجوبة عصره". الحقيقة أنّ أعجوبة عصره هو من

صنع هذه القصة... فزمن الحجاج خاف فيه بعض التابعين والفقهاء أن يذكروه بموعد الصلاة خوفاً من بطشه وأحالوها لجواز الصلاة خلف الإمام الفاسق.. فيه فتى يحدثه بهذه الطريقة ولا يخاف بطشه! ماذا منع الحجاج أن يضرب عنقه وقد هز هيبته؟! أما كان يخشى الحجاج أن يصل لمسامع أمير المؤمنين أنّ غلاماً ذكره بسوء وشق عصا الطاعة له علانية وعفا عنه بل وأمر له بجائزة؟! وهل كان الفتى على دراية بعدد الارتدادات عن الإسلام أو حتى حجمها في زمن لم يعرف علم الإحصاء؟! وهل كان الحجاج بهذه الفصاحة ليدرك ما قصده الغلام من تورية، ثمّ يتركه بكلّ هذه البساطة وهو القائل: "والله ولو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب لحلت لي دماؤكم، ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلا ضربت عنقه، ولأحكنها من المصحف ولو بضلع خنزير"!

إذاً نخلص من هذه القصة ومناقشة أوجه ضعفها أنّ كاتبها وواضع معانيها ربما كان عالم لغة أراد أن يتفذلك (الفزلكة أو الفذلكة وهي من التركية بمعنى المراوغة والمبالغة) أمام طلابه ليلقي على مسامعهم درس في التورية والتلاعب بالألفاظ أو عالم دين أراد منها أن يعلم صبيانه الشجاعة في المهد وعظم أجرها.

لكن حينما نصعد درجات التاريخ ونقف عند محطة المماليك هنا يصعب أن تفرق بين الخيال والحقيقة لجنون سلاطين هذه الحقبة، لكن يمكن تمييز بعض القصص فمثلاً حينما يخط كاتب التاريخ بريشته ليرسم ملامح شخصية السلطان الملك "الظاهر أبو سعيد سيف الدين الأينالي المؤيدي أو يلباي تلي، أو يلباي" المجنون أو السلطان "قل له أو قله"... تجد أنّك أمام بورتريه شديد المنطقية ومتجانس تماماً فالسلطان تولى الحكم بعد أن ناهز السبعين، فالطبيعي أن يكون

لديه ضعف إرادة وخلط وإذا علمنا أن تلقيبه بالمجنون كان في شبابه وسابقاً على حكمه، إذاً فإصابته بالذهول عقب توليه هو أمر منطقي جدّاً له ولعموم الشعب البائس المفعول به في هذه الأزمنة...

كانت السلطة الفعلية في قبضة زعيم المماليك «الخشقدمية» الدويدار الكبير "خاير بيك أو خير بيك" وكلما عرضت على "بلباي" مسألة كان يشير لخاير بيك ويقول: "إيش كنت أنا، قل له" أي قل لخاير بيك لذا عرف بالسلطان "قله" وكان السلطان بالمعنى الحرفي لكلمة "بصمجي" فلم يكن ملماً بالقراءة ولا يستطيع توقيع المستندات دون أن يوضع له نقاط كي يملؤها واستمر حكمه شهرين إلا أربعة أيام حيث قبض عليه وأودع سجن الإسكندرية وهو يبكي قائلاً: "والله ما أنا بسلطان، أنا أمير، وماذا أعمل بالسلطنة، سني كبر وعقلي ذهل، بالله سلم على السلطان وقل له أني لستُ السلطان" ومات بالطاعون في عهد الأشرف قايتباي ولم يبقَ من ذكريات حكمه سوى درهمه الذي حمل اسمه الصحيح "بلباي" وليس "يلباي" كما تناقله المؤرخون...

في المجمل لا أجد ما هو أفضل لرصد حصاد الدولة المملوكية ووقع أثرها في التاريخ المصري من هذا الملخص البديع لأبي العباس تقي الدين أحمد بن علي ابن عبد القادر بن محمد العبيدي المقريزي في كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" إذ يقول: "فبدّلت الأرض غير الأرض، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً، وأشحهم نفساً، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضاً عن الدين، ما فيهم إلّا من هو أزنى من قرد، وألص من فأرة، وأفسد من ذئب، لا جرم أن خربت أرض مصر والشام، من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات، بسوء إبالة الحكام،

وشدّة عبث الولاة، وسوء تصرّف أولي الأمر، حتى أنّه ما من شهر إلّا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه".

انظر مثلاً ما تدعيه بعض الروايات من أنّ " أم علي" زوجة المعز أيبك الأولى، وإمعاناً في الانتقام من ضرتها شجرة الدر (راجع تأملات بين العلم والدين والحضارة) أن أمرت بعد قتلها بالقباقيب بتقطيع "حلمتيّ" صدرها ووضعهما على الحلوى الشهيرة باسمها، ومن هذه "الحلمتين" استلهم الناس وضع "الزبيب" أو "الفستق" على سطح حلوى "أم علي"، فهل هذا يعقل؟!

التاريخ الإسلامي أيضاً دائماً ما يفتقد المذكرات الشخصية التي ربما أقبل على كتابتها بعض الخلفاء في العصور الناهضة، لكنّها ضاعت أو أتلفت مع ما ضاع وأتلف مع تغير الأزمنة واختلاف الأيديولوجيات السياسية والمذهبية وأكثر ما يصيبك بالإحباط أنّك حينما تعثر على أثر نادر لمثل هذه المذكرات تجده في مواضيع هامشية مثل كتاب "فصول التماثيل في تباشير السرور" لأمير المؤمنين أبي العباس عبد الله بن المعتز (خليفة عباسي استمرت ولايته يوماً وليلة فقط، وهو أديب وشاعر ومؤسس علم البديع) والمشتمل على عدة فصول في: الكروم والأعناب – فضائل الشراب – خاصية الشراب – العلامات المحيطة بأفعال الشراب – القول على شريف جوهر الشراب – لطيف نسيم الشراب– طريف حركة الشراب – قسمة ألوان الشراب وغيرها من الموضوعات التي تصب في خانة الترف والطرافة.. لكن أين رؤية الحاكم لقضايا زمنه ولمحكوميه وشهاداته على عصره وعصور سابقيه وتنبؤاته بالمستقبل؟! لمَ لا؟ فمن يكتب عن الشراب يمكنه أن يكتب في

السياسة؟! أظن أنّ بعضهم أقدم على هذه الخطوة، لكن من هم على وجه التحديد؟! وأين ذهبت مذكراتهم؟! أعتقد أنّه مبحث يستحق أن ترصد له دراسات وكتب..

لكن هل وجود بعض الثغرات في التاريخ الإسلامي تعني إهماله أو اتهامه وتركه بالكلية؟! لا... بل الصواب أن نركز على مضمون متنه ونستعير الحقيقي منه ونتفاعل بالمستنير فيه ونسترشد بالمتسق مع العقل به والداعي للابتكار ونشر القيم والفضائل عبر ملاحمه الطويلة. هل تدري أنّنا في العهد الإسلامي ومع تجربة البيمارستان المنصوري، كنا الأسبق في التاريخ لإنشاء منظومة صحية متكاملة حقيقية (انظر حكايات من بحور التاريخ) تتبنى مفاهيم الجودة ومكافحة العدوى وتحقق مبادئ تكافؤ الفرص وحقوق الإنسان بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو دينه في تلقي الرعاية الصحية الكاملة والعلاج دون مقابل؟! وعلى هذا المنهاج سارت أوروبا وأقول حقيقية لأنّها وجدت مطبقة والشاهد عليها الناس، وليس ما كتب على أسطح وجدران معابد أو مسلات كما الحال في الآثار الفرعونية التي ينسب إليها الفضل في كلّ صغيرة وكبيرة دون دليل من حياة الناس.

****

36-أفردت كثيراً في كتبك لتجربتي الملك فؤاد والرئيس عبد الناصر فلماذا؟

دراسة التجربتين بعمق وبحيادية كفيل بتحقيق مستقبل مشرق لمصر... الاثنان من خلفية عسكرية ليبرالية مثقفة.. الأول: الملك فؤاد.. انفتح على التعليم بقوة بحكم نشأته في إيطاليا وحدد أولويات مصر في التعليم والمجالات التي بحاجة إليها فأرسل البعثات للخارج في كلّ التخصصات متفوقاً في ذلك على جده محمد علي باشا وأبيه إسماعيل باشا، وأغدق على هذا الهدف وتابعه بنفسه ودعم جهود الجامعة المصرية في نشر الثقافة والفكر وراقب ذلك عن كثب أيضاً وترك حرية الصحافة على مصراعيها في مناقشة شتى القضايا والأزمات مع قيود يسيرة... أما الثاني: عبد الناصر.. ففتح التعليم على مصراعيه، ولكن دون أولويات يراعي فيها التخصصات التي تحتاجها مصر في كلّ مرحلة، فأصبح التعليم في جمود يعتمد على الكم دون الكيف ودون تحقيق الجودة والانفتاح على العلوم العصرية بالغرب... ما أنجح التجربة الناصرية في التعليم هو ميراث الملكية من المتعلمين والمثقفين الذي وضع بذوره الملك فؤاد وشيد بنيانه بيديه، وما إن نفد الميراث في العهود اللاحقة حتى أصبح جليّاً مقدار ما يعانيه التعليم في مصر من ترهل.

لكن مع ذلك فالتجربة الناصرية في الالتفات للصناعة والبناء والتشييد وتحقيق العدالة الاجتماعية والاعتماد على العنصر المصري ودعمه.. تجربة تستحق أيضاً أن تكون واجهتنا نحو المستقبل... ربما لا تصح أن تكون رؤيتنا في الصناعة أنّنا سنصنع كلّ شيء من الإبرة للصاروخ، فهذا ربما كان ممكناً في الستينيات، ولكن

ما ينبغي أن نبحث عنه أن نكون شركاء في الصناعة العالمية متميزين في شيء أو جملة أشياء يحتاجها الآخرون..

في مجلة الفكاهة العدد ٢٩٧ في ٢ أغسطس ١٩٣٢م وتحت عنوان: "ما قولكم.. فتاوى الفكاهة" سألت الآنسة ف.ح.م: "متى تتحقق أمنية مصر؟ "فأجابت الفكاهة: حين تشاء مصر بالفعل لا بالقول وفرق كبير بين من يقول (نفسي في الكمثرى) وبين من يشتري الكمثرى ويأكلها، فاليوم الذي تتحقق فيه مشيئة مصر هو اليوم الذي تستغني مصر فيه عن الأجانب وتصنع لنفسها كلّ ما تحتاج إليه ولا تقول: (نفسي في كذا) وتنتظر من غيرها أن يعمله لها، فإذا فعلت ذلك وجد الأجانب أنّهم هنا أصفار على الشمال فيكون الاستقلال". حينما تتأمل هذه الأمنيات في الثلاثينيات أي عهد الملك فؤاد وتقارنها بما فعله عبد الناصر من تحقيق لهذه الأمنيات في الخمسينيات والستينيات ستدرك حجم المعجزة التي سطّرها عبد الناصر في تاريخ الاقتصاد المصريّ والنقلة التي أحدثها.. مصانع عملاقة مثل: المراجل البخارية التي تحتاجها الصناعات الكيماوية والغذائية والغزل والنسيج وتوليد الكهرباء - مجمع الحديد والصلب بحلوان، ومجمع الألومنيوم في نجع حمادي -مصنع الفيروسيليكون في إدفو -مجمع البترول بالسويس ومسطرد وطنطا والإسكندرية وغيرها من المصانع علاوة على السد العالي المشروع العملاق الذي خلّد اسمه في التاريخ...

يبقى أن نشير إلى النقطة الأسوأ في تاريخ عبد الناصر وهي الانقلاب على الحياة الدستورية في العهد الملكي، والتي لم تكن في حقيقتها مساراً ديموقراطياً رشيداً، كما يظن البعض وقد أوضحت هذا مراراً بالأمثلة في أكثر من كتاب لي..

وأكاد أجزم من خلال ما تجمع لي من شهادات تاريخية وأخبار صحفية وبحدسي أنّ ما وقع في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م كان انقلاباً عسكرياً على انقلاب عسكري أعده فاروق وأنّها كانت خطوة استباقية لما كان يفكر فيه فاروق فعلياً، لكن الوقت لم يسعفه وهو الانقلاب على الحياة الدستورية، وتجميد دورها وتحييدها عن صنع القرار بمجرد خروج الإنجليز من مصر بشكل نهائيّ عبر الاستعانة بقيادات الجيش الموالية له وهو ما يظهر جلياً بوادره في الفقرات التي كان يقدمها ضباط الجيش بالإذاعة المصرية (ويمكن العودة لكتابي رواق القصص الرمضاني في المزيد حول ذلك) وكذلك إسناد بعض القضايا المدنية للقضاء العسكريّ (راجع هوامش على دفتر أحوال مصر) وربما كان يمهد بهذه الخطوات أيضاً لوزارة من الجيش، وأعتقد أنّ هذا هو سر العبارة التي أوردها نجيب في مذكراته عن اللقاء الأخير بينه وبين فاروق على يخت المحروسة، وقال فيها فاروق:"أنتم سبقتموني بما فعلتموه، فيما كنت أريد أن أفعله" وفسرها البعض بزهد فاروق في الحكم وعزمه على ترك الحكم والبعض الآخر بنية فاروق للإصلاح، ولكن وجهة نظري أنّه قصد عزمه على الإتيان بالجيش للسيطرة على مفاصل البلاد...

في كتاب "فلسفة الثورة" لجمال عبد الناصر عبارات شديدة الأهمية تشي بأحلام فاروق المستندة للجيش والتي سقطت مع ثورة ١٩٥٢م واعتبرها دليلاً آخر، وذلك في قول عبد الناصر: "كنا نحن الشبح الذي يؤرق به الطاغية أحلام الشعب، وقد آن لهذا الشبح أن يتحوّل إلى الطاغية فيبدد أحلامه هو."

وفي أزمة مارس الشهيرة حينما أراد نجيب أن يعيد الحياة الدستورية لسابق عهدها لم يكن عن قناعة لدى نجيب بذلك وإلا لما عطلها منذ البداية وترك رجالها

للمحاكمات التي اختلط فيها الحابل بالنابل! ولكنّها كانت محاولة منه للعب بورقة الديموقراطية مجدداً ليرسخ من سلطاته أمام مجموعة من الضباط تلاعبوا به فرفعوه إلى واجهة ثورتهم، وبعد أن تم لهم ما أرادوه قلموا صلاحياته، وأصبح مجرد صورة لا أكثر... ولجمال عبد الناصر تصريح نشرته جريدة الجمهورية في العدد ١١٠ في ٢٦ مارس ١٩٥٤م يقول فيه: "لم أخادع.. ولم أضلل.. ولن أستجدي.. سأعتزل السياسة يوم ٢٤ يوليو" وذلك تعليقاً على قرارات مجلس الثورة -التي نشرتها الجريدة- بالسماح "بقيام الأحزاب السياسية وألا يؤلف مجلس الثورة حزباً وانتخاب جمعية تأسيسية بالانتخاب الحر المباشر لها سلطة السيادة وسلطة البرلمان كاملة والجمعية تنتخب رئيساً للجمهورية البرلمانية في ٢٣ يوليو وحل مجلس الثورة يوم ٢٤ يوليو (المقبل)" بما عرف بقرارات مارس الشهيرة وأعيد مرة أخرى أنّه لو كان لدى نجيب النية الصادقة لكان فعلها مبكراً في ١٩٥٢م وليس ١٩٥٤م، كما أنّ تصريحات عبد الناصر تكشف ما كان لدى الرجل من نوايا وقدرة على المراوغة السياسية لا يستثنى منها أحد يدخل هذه الحلبة بأغراضها ومطامعها... فنجيب كان الأقوى شعبياً في ذلك الوقت مما يتطلب ملاينة ريثما تمر العاصفة، ويصبح تحييد نجيب أمراً ممكناً وهو ما رسم له عبد الناصر ونجح فيه بدهاء... نفس هذه القدرة كانت لدى الملك فؤاد في التعامل مع ثورة ١٩١٩م، وتداعياتها ومحاولة مسك العصا من المنتصف فلا يتصادم مع الإنجليز بشكلٍ مباشرٍ، وفي نفس الوقت يظهر نفسه بالملك الوطني بشكلٍ غير مباشرٍ أيضاً فهو لم يصدر مثلاً أمراً بعصيان زعيمها الأبرز سعد زغلول، كما فعل أخوه توفيق مع عرابي! كما استفاد فؤاد من نتائج الثورة في الحصول على استقلال جزئي عام ١٩٢٢م، وإعلان المملكة المصرية، لكن لم يسمح في الوقت ذاته

لزعيمها سعد زغلول بالانتقاص من صلاحياته، فتلاعب برجالات الثورة وعزز من انقساماتها بدهاء شديد...

حينما نتحدث عن الاعتماد على الكفاءات وإبرازها فالكفة تميل لعبد الناصر... لا لأنّ الملك فؤاد لم يفعل ذلك، ولكن لأنّ اعتماد عبد الناصر كان في المقام الأول على العنصر المصري الفعال، فأطلق للمواهب المصرية العنان وجعل لها الصلاحيات لتحلم وتنجز، بينما الملك فؤاد اعتمد على العنصر الأجنبيّ المدرب بحكم عدم جاهزية البلاد في وقته فضلاً عن سيطرة الأجانب بسبب الاحتلال..

وحتى نكون متفقين ففترة عبد الناصر التي أعنيها هي ما قبل عام ١٩٦٧م.

عبد الناصر في هذه الفترة وضع الشخص المناسب في مكانه المناسب، فأسند لسعد كامل (كان معتقلاً في السابق) بالتنسيق مع وزير الثقافة الكفء "ثروت عكاشة" ملف الثقافة الجماهيرية فدشن منظومة قصور الثقافة التي غزت كلّ المحافظات، بل ووصلت للقرى والنجوع ونجح سعد كامل في أن يحرر الثقافة من أغلال البيروقراطية المصرية.

كلف عبد الناصر الدكتور "النبوي المهندس" بوزارة الصحة (كان مشارك في إضراب الأطباء ١٩٥٧م) فأدار الملف الصحيّ على أحسن ما يكون، وأصبحت الرعاية الصحية مكفولة للجميع، فوضع لبنات مشاريع عملاقة لازلنا نسير على خطاها حتى يومنا هذا منها مشروع تنظيم الأسرة وحملات التطعيم المبكر للوقاية من الأمراض فضلاً عن التطعيم الإجباري والتأمين الصحيّ والمراكز المتخصصة للقلب وشلل الأطفال، وتأهيل السمع والبصر، ورفع كفاءة منظومة الإسعاف لتقوم بدورها

في عمليات الإنقاذ فزودها باللاسلكي وأجهزة التنفس الصناعي، ونقل الدم وجعل فصيلة الدم من بنود البطاقة الشخصية لتسهيل عمليات الإنقاذ في حالات حوادث الطرق وأنشأ آلاف الوحدات الصحية بالريف المصري المحروم من هذه الخدمات لعقود كما اهتمّ برفع كفاءة الأطقم الطبية وفي مقدمتها التمريض، فأقام مدارس للتمريض في المستشفيات لتخريج أجيالٍ مدربة على مستوى عالٍ.. كما أنّه أوّل من التفت إلى أهمية وجود سجل مرضيّ لكلّ مواطن يمكن العودة إليه.

أسند عبد الناصر للدكتور عزيز صدقي منصب وزير الصناعة ليدير ملف التصنيع في مصر بقدرة فائقة منقطعة النظير، وكلّ المشروعات العملاقة التي أشرنا لها آنفاً كانت في عهده.

ولا ننسَ مطار القاهرة الدوليّ وأستاد القاهرة الرياضيّ، وكلّها مشاريع أشرف عليها المهندس "مصطفى شوقي" في عهد عبد الناصر وهو الرجل الكفء الذي اشترك في إنشاء الجامعة الوحيدة في "كوناكري" في غينيا والتي أطلق عليها "معهد الفنون التطبيقية" ثمّ تحولت إلى "جامعة جمال عبد الناصر" في منتصف الثمانينيات تخليداً لذكراه.

كما وجه عبد الناصر عنايته لمحدودي الدخل وضرورة توفير مساكن مناسبة لهم فوجه بإنشاء شركة "التعمير والمساكن الشعبية" وجعل عليها المهندس "علي نور الدين نصار".

بادر أيضاً عبد الناصر لمحاولة حلّ مشكلة المواصلات في مصر عبر إحياء فكرة مترو الأنفاق التي يقال: إنّها عرضت للمرة الأوّلى على الملك فؤاد عبر المهندس سيد

عبد الواحد بمصلحة السكك الحديدية، وربما لم ينفذ المشروع وقتها لضخامة تكاليفه ولأنّه سيتطلب شكلاً من أشكال الدعم، لأنّه يخدم في المقام الأوّل عامة الشعب.. لا تستغرب أن تغيب قضايا مثل هذه عن أولويات صاحب القرار في الماضي ولو عدت لكتابي هوامش على دفتر أحوال مصر، وقضايا "الترمواي" لوجدت تخبطاً شديداً في علاجها مع أنّ الحلول طرحت مئات المرات وجميعها سهلة وممكنة وسأطرح مثالاً جديداً منها هنا ففي اللطائف المصورة في العدد ٣٨٩ في ٢٤ يوليو ١٩٢٢م، نجدها تنقل مقالة تصفها بالدقة لأحمد أفندي البكري من صحيفة المقطم يطرح فيها الشروط للشركة لتقلل الحوادث... لكن لا حياة لمن تنادي وسياسة الدولة الاقتصادية في عهدي فؤاد وفاروق وحتى من قبلهما، قفزت على مشاكل الفقراء وأصمت آذانها عن واقعهم حتى تنهض وتتقدم لكن طبعاً بدونهم... عبد الناصر استند لأبحاث الدكتور علي صبري أستاذ ميكانيكا التربة والأساسات، وكذلك للخبرات الفرنسية في هذا الصدد، ولم ينفذ المشروع لظروف حرب ١٩٦٧م.

ذكاء عبد الناصر أنّه وعلى الرغم من الخلاف مع بعض الشخصيات إلا أنّه كان يطلق أحياناً مساحة آمنة للتلاقي حينما يتعلق الأمر بفائدة الوطن فمثلاً: "نجيب الكيلاني" الطبيب والأديب والشاعر والذي كان ما زال معتقلاً في عهد عبد الناصر لم يمنع ذلك من حصول روايته الأولى "الطريق الطويل" التي ألفها في المعتقل على جائزة وزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٧م، بل وتدرس على طلاب المرحلة الثانوية في الصف الثاني الثانوي عام ١٩٥٩م! أعتقد أنّه درس مفيد في ثقافة الاختلاف.

ذكاء عبد الناصر أيضاً أنّه توجه للفقراء الذي عانوا طويلاً بالرعاية والاهتمام، فأحبّوه وجعلوه رمزاً دائماً. لازلت أذكر من سنوات ليست بالبعيدة رجلاً كان يسكن

العراء في شارع شعبيّ بمدينتيّ وقد صنع كوخاً من خشب، وكساه بصورة عبد الناصر، وآخر جعل على باب بيته رسماً ملوناً بالحجم الطبيعي، لعبد الناصر كما لا أستطيع أن أمحو من ذاكرتي بائع السندوتشات بالقرب من مدرستي والذي رفض أن يبيعني صورة عبد الناصر، لأنّه يعتبرها كأبنائه لا يفرط فيها! هذه ليست قصص مختلقة، فأنا لست "ناصرياً" قولاً واحداً، ولكنّه نقلاً أميناً لمشاهد عايشتها وكانت جزءاً من تشكيل وعيي في مراحل من حياتي الماضية.

هل أقول لك شيئاً مفيداً؟!

حتى لا تحَارَ وقد تخشى على نفسك الافتتان بين جمهور الملكية ممثلة في فؤاد وجمهور الجمهورية ممثلاً في عبد الناصر.

تتبع جهود الملك فؤاد والتي أفردت لها كثيراً في كتبي ولا داعي لإعادة ذكرها خشية الإطالة وجمعها في ورقة بيضاء واحذف اسمه وارمز له بالرمز (X) مثلاً: ثمّ اجعل في مواجهتها ورقة بيضاء أخرى جمع فيها جهود عبد الناصر، ثمّ احذف اسمه وارمز له بالرمز (Y) مثلاً.

مع حذف الأسماء سترح نفسك من عناء الشخصنة والاتهامات بالموالاة والمغالاة..

ومع جمع الرمزين معاً (X+Y) يجتمع لك رؤية تسترشد بها في النهوض بمصر المريضة الواقفة في منتصف الطريق.

****

37- في ضوء تتبعك لأرشيف الصحافة المصرية ما هي أكثر فكرة صحيفة أعجبتك؟!

بالتأكيد هي مجلة "التربية الحديثة" أوّل مجلة عربية أُنشئت خصصياً للأبحاث العامة في فن التربية الحديثة والتي كانت تصدر أربع مرات في العام من قسم التربية بإدارة الجامعة الأميركية بالقاهرة منذ عام ١٩٢٧م لمحرريها رسل جولت، أمير بقطر. الفكرة في حد ذاتها شديدة الأهمية لبناء جيل واعٍ ويا حبذا لو اصطبغت بحوث التربية بالدين ليكتمل أثرها وتعم فائدتها.

ومن التجارب الدينية المسيحية في هذا الصدد مثلاً "رسالة المودة" وقد وقع تحت ناظري العدد الثاني منها في فبراير ١٩٤٠م، وبحسب غلافها فهي "رسالة دينية عقائدية تاريخية أخلاقية شهرية". ومجلة الشرق والغرب عدد ٨ في سبتمبر ١٩٣٥م (مجلة دينية أدبية أسسها القس ثورنتن ١٩٠٥م). وعلى صعيد التجربة الإسلامية مجلة الشبان المسلمين ج١م٣ في أكتوبر ١٩٣١م، لرئيس التحرير المسؤول الدكتور يحي أحمد الدرديري.. وكلّها تجارب يمكن وضعها تحت المجهر ودراستها هي وغيرها للاستفادة منها في تطوير مساقٍ أخلاقي تربوي عماده الدين وأصول التربية الحديثة.

****

38- تحدثت في كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر" عن الشيخ الشربتلي باعتباره نموذجاً للكاتب الذي ينسج الأخبار ويحترف الفبركة الصحفية فعلى ماذا اعتمدت في بحثك؟! وماذا كان رد فعل الزعيم مصطفى كامل حينما استقصى عنه؟ وهل يمكنك أن تزيدنا عنه لنراه بصورة أقرب؟!

اعتمدت في القصص الذي أوردته عن الشيخ الشربتلي ونوادره على مجلة "كلّ شيء والعالم" العدد ٢٤٣ في ٥ يوليو ١٩٣٠ م.

فيما يخص موقف الزعيم مصطفى كامل منه، فقد ذهب بنفسه إلى محمد أبو شادي بيك (كان نقيباً للمحامين وخطيباً بالأزهر وهو والد الشاعر أحمد زكي أبو شادي والأخير تعرضنا لقصته مع إسماعيل أدهم في نوستالجيا الواقع والأوهام) محرر "الظاهر" وكان مصطفى كامل على علاقة وطيدة بالشاعر مصطفى نجيب -شقيق زوجة أبو شادي- السيدة أمينة محمد نجيب وكانت شاعرة أيضاً وسأله عن حقيقة التلغرافات التي يكتبها الشربتلي في الظاهر (أشرنا إلى أمثلة منها في الكتاب) ونقل له استياء الطبقات المثقفة من هذا العبث وهو ما وافقه عليه أبو شادي.. هنا أسرع الشربتلي من فوره وكان على الباب منتظراً خروج الزعيم ليمحو أثره من نفس أبي شادي فقال له: "هل رأيت كيف تكون المنافسة؟! إنّه لم يقل هذا الكلام إلا لأنّ اللواء (صحيفة مصطفى كامل) أصبح لا يباع منه شيء أمام مقطوعية الظاهر الكبيرة".

طبعاً كان الشربتلي ينتهج أسلوباً مختلفاً مع أصحاب الصحف الأخرى كلا بحسب ما يدفعه فحينما يشكو إليه مثلاً صاحب صحيفة ممن يدفعون خمسة قروش صاغ

للصحيفة الواحدة من دقة خطه وتعذر قراءته من قبل منضدي الحروف بالمطابع.. كان يرد الشربتلي قائلاً: "هي أم خمسة هتشتري ورق والا حبر والا أجر كتابة مقال"..

أما عن المعلومات المحدودة عن شخص الشربتلي والتي قد تصلح أن تعطي لنا لمحة سريعة عنه فلا تعدو كونه من الصعيد واسمه هو محمد بن محمد الشربتلي.. لم يكمل تعليمه بالأزهر.. أنشأ مجلة النهج اليومية بالتعاون مع أحد أصدقائه عام ١٨٩٦م وتولى رئاسة تحرير مجلة الأمة عام ١٩٠٦م، وتوفي عام ١٩٠٨م. الطريف أنّه كان يقرض الشعر، وذلك بحسب ما ورد عنه بموسوعة شعراء العرب للباحث العراقي سامي ندا جاسم الدوري ومن شعره: قصيدة "قدوم الأمير من ثغر الإسكندرية" يقول فيها: "عيون الشعب تنظر من بعيد.. قدوم السدة العليا كعيد.

ونادت مصر يا أهلي تهنوا.. فقد وافى أميري بالورود.

ومن الأهل والأوطان خيراً.. بظلّ بقاء عباس الوحيد."..

من الطريف أنّ الشربتلي أيضاً كان يكتب في مجلة النادي الإيطالية وهي المجلة التي أسسها الطبيب والجراح الإيطالي "إنريكو إنساباتو" الصديق المقرب لرئيس الوزراء الإيطالي "جيوفاني جوليتي" عام ١٩٠٤م، لنشر الثقافة الإيطالية في مصر.

ولا يمكننا أن نمضي دون أن نشير لطرائف "محمد أبو شادي بيك" أيضاً، فبحسب رواية ساقتها "بوابة اليوم السابع" عنه في ٤ مايو ٢٠٢٠ م، من أنّه قام خطيباً ذات مرة في حفل أقامه حزب الأحرار الدستوريين، فابتدر خطبته بالقول: "اللّٰهُمَّ افضحنا ولا

تسترنا" فحاول البعض إجلاسه، فأعاد عبارته بتمام مقصده منها قائلاً: "اللّٰهُمَّ افضحنا ولا تسترنا؛ ليتبين الخبيث من الطيب" وهنا تحولت دهشة الحاضرين لتصفيقٍ وهتافٍ.

****

39- في "هوامش على دفتر أحوال مصر" تعرضت لصنوف من المدح المشوب بالنفاق ما هو أطرف ما وجدته في الأرشيف يقبع تحت هذا العنوان ولم يأتِ ذكره بالكتاب؟

في كلّ الأحوال كنت حتماً سآتي بمثال جديدٍ كما اتفقنا في هذا الكتاب، ففي العدد ٨٩٨ من جريدة الوقت (يومية وتجارية وسياسية وعلمية ووكلاؤها هم وكلاء جريدة الأهرام) في ٣٠ يوليو سنة ١٨٨٠م، تفرد الصحيفة صفحتها الأولى لقانون "التصفية العمومي" والذي تطرق لوضع عائدات السكك الحديدية والتلغرافات، كلّها لخدمة الديون أي خبر شؤم على مالية مصر، ولكن لأنّ القانون موقع بتوقيع "الحضرة الخديوية" ويقصد الخديوي توفيق فقد جاء تعليق الصحيفة على الحدث مستفزاً بقولها: "ويحق والله لكلّ مصريّ أن يتذكر بالمسرة ورود هذا اليوم السعيد الذي كان حداً فاصلاً بين العسر واليسر، بل كان يوم ابتداء الغبطة والسعادة والمسرة والأفراح في يمن سمو الخديوي توفيق الأول المعظم الذي سيحفظ له العدل في سجل الدهر ذكراً شريفاً مجيداً لا تقطعه كرور الأيام". تصور معي دائناً جاء يحجز على بيتك فتركت مصابك الفادح بفقد بيتك ولم تنعَه ورحت بدلاً من ذلك تمدح من اعتمد صك الحجز على بيتك والأيام الزاهرة التي حجز عليك فيها! ولله في خلقه شؤون.

****

40- لا أستطيع تصديق ما كتبته عن واقع الأسر المصرية قبل عام ١٩٥٢م والذي رصدته في كتبك الثلاثة: "نوستالجيا الواقع والأوهام وتاريخ حائر بين بان وآن وهوامش على دفتر أحوال مصر"؟! فلقد سمعت من حكايات أبي عن جدي عن تواضع الأسعار ورحابة الشقق السكنية وانخفاض إيجاراتها مقارنة بعصر الرئيس الأسبق مبارك الذي زاد فيه كلّ شيء وقد مات جدي في تسعينياته؟!

إنّها النوستالجيا بواقعها وأوهامها كما نقول دائماً... لقد جمعني القدر بأحد الزملاء يتحدث مع أبنائه عن غلاء الأسعار وعدم كفاية راتبه في هذا الزمان والذي يصل إلى ٣٠٠٠ جنيه بالقطاع الخاص مقارنة بزمن "الرخص" في عصر مبارك والذي كان كيلو اللحم فيه ب ٤٠ جنيه بينما اليوم وصل كيلو اللحم إلى ٣٠٠ جنيه.

استوقفني ما قاله الرجل فقلت له: أنا التحقت بالوظيفة في عهد مبارك عام ٢٠٠٥م، وكان راتبي ٤٠٠ جنيه (٢٠٠ جنيه أساسي +٢٠٠ جنيه حوافز) وسعر كيلو اللحم كما تفضلت كان وقتها ٤٠ جنيهاً أي أنّ مرتبي= ١٠ كيلو لحماً.. وأنت راتبك ٣٠٠٠ جنيه كما تفضلت، وسعر كيلو اللحم ٣٠٠ جنيه أي أنّه يساوي أيضاً ١٠ كيلو لحماً... إذاً لا شيء تغير... نحن فقط نحن للماضي دون دراسة كافية.

نأتي للعهد الملكي بيت القصيد وأحيلك إلى مثال جديد من مجلة آخر ساعة في عددها ٩١٧ في ٢١ مايو ١٩٥٢ م، أي قبل شهر تقريباً من الثورة واستطلاع أجرته كلية التجارة بجامعة فؤاد الأول تحت عنوان "نتائج مخيفة عن حياة الأسرة المتوسطة في القاهرة" تحت إشراف الدكتور حسن محمد حسين أستاذ الأحصاء والمشرف على جمعية الإحصاء بالكلية وأشار الاستطلاع إلى أنّ عدد الأسر بالقاهرة ٤٠٠ ألف أسرة

والأغلبية منها يتراوح دخلها ما بين خمسة جنيهات وخمسة وثلاثين جنيهاً شهرياً وعلى هذه الشريحة انصب البحث والذي وجد أنّ هذه الأسر تستدين شهرياً ١٤٠ قرش في المتوسط أي أنّ النفقات تزيد عن الدخل بهذا المقدار وأنّ الخبز (مع الجبن أو الفجل أو اللفت) هو الوجبة الأساسية طوال الأسبوع وينفق عليه ربع الدخل: ستة قروش في اليوم الواحد.. كشف الاستطلاع أيضاً عن عجز هذه الأسر في توفير ميزانية لشراء ملابس الشتاء والصيف وأنّ شراءَ زيّ جديد لأحد أفرادها رهنٌ بتمزق القديم وعدم صلاحيته تماماً، وأنّ الأسرة المكونة من ثمانية أو تسعة أفراد دخلها لا يكفي لشراء أكثر من نصف رطل أو ثلاثة أرباع من اللحم على الأكثر أي بما يساوي تسعة قروش، وأنّ الطيور والبيض والألبان غالباً ما تغيب عن ميزانية الأسر، والتي لا يتواجد من بينها سوى عدد قليل جدّاً قادر على شراء الطيور مرتين أو ثلاثة كلّ شهر، فضلاً عن أنّ بعض الأسر لا تتناول المواد السكرية... ويبسط الدكتور حسن حسابات الأسرة الواحدة على النحو التالي، فالأسرة التي يبلغ دخلها مائة (مليم - قرش- جنيه) في الشهر تصرف: "٤٣ على الغذاء- ١٢ على الكساء - ١٢ على النفقات المنزلية - ١٠ على المسكن -٢٤ نفقات أخرى".. وأنّ ما يصرفه الفرد الواحد على العلاج (زيارة الطبيب +شراء أدوية) ٢٤ قرشاً بواقع ثمانية مليمات في اليوم وبنسبة ٥٪ من دخلها.. أعتقد أنّ الأمور واضحة جدّاً، ولا تحتاج تعليق أكثر من ذلك.

41- ما هو مصدرك فيما يخص جلوس محمد علي كلاي نجم الملاكمة العالمي على كرسي عرش محمد علي باشا كما ورد بكتابك "هوامش على دفتر أحوال مصر"؟! ولماذا تحرص دائماً على ذكر مصدرك من الأرشيف برقم العدد والتاريخ بالرغم من عدم اتجاهك للكتابة الأكاديمية كما تزعم؟!

المصدر هو مجلة المصور في عددها ٢٠٧٠ في ١٢ يونيو ١٩٦٤م وتصدر العدد صورة "كلاي" وبالداخل تحقيق مصور لمحي الدين فكري تحت عنوان "قصة محمد علي كلاي في القاهرة" والصورة الشهيرة له على كرسي العرش لمحمد علي باشا الكبير.

حتّى وإن قصدت أن تكون كتاباتي مبسطة لعموم الناس لا يعني ألا ألتزم الأمانة العلمية في النقل قدر الإمكان، ولا يعني أيضاً ألا تكون كتبي معيناً للباحثين الأكاديميين في أي وقت وأن أصنع داخل مؤلفاتي المتعددة "ببليوغرافيا" شاملة للصحف والمجلات المصرية النادرة يخدمني في سهولة عودتي للمصادر إن احتجتها مرة أخرى، ويخدم غيري من الباحثين على السواء في التعمق والإضافة...

تم بحمد الله تعالى

****

الكاتب في سطور

د. محمد فتحي عبد العال

(جبرتي الجائحة وعماد التاريخ)

كاتب وباحث مصري

من مواليد الزقازيق محافظة الشرقية بمصر عام ١٩٨٢

المؤهلات العلمية:

1-بكالوريوس صيدلة جامعة الزقازيق ٢٠٠٤.

2-دبلوم الدراسات العليا في الميكروبيولوجيا التطبيقية جامعة الزقازيق٢٠٠٦ .

3-ماجستير في الكيمياء الحيوية جامعة الزقازيق ٢٠١٤.

4-دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية من المعهد العالي للدراسات الإسلامية ٢٠١٧.

5-شهادة إعداد الدعاة من المركز الثقافي الإسلامي التابع لوزارة الأوقاف ٢٠١٧.

6-دبلوم مهني في إدارة الجودة الطبية الشاملة من أكاديمية السادات للعلوم الإدارية ٢٠١٧.

****

نزهة الألباء في مطارحات القراء

(تجربة فريدة في التواصل الفعال)

الدكتور

محمد فتحي عبد العال

الطبعة الأولى
1444 هـ 2023 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879
00201030502390
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر .